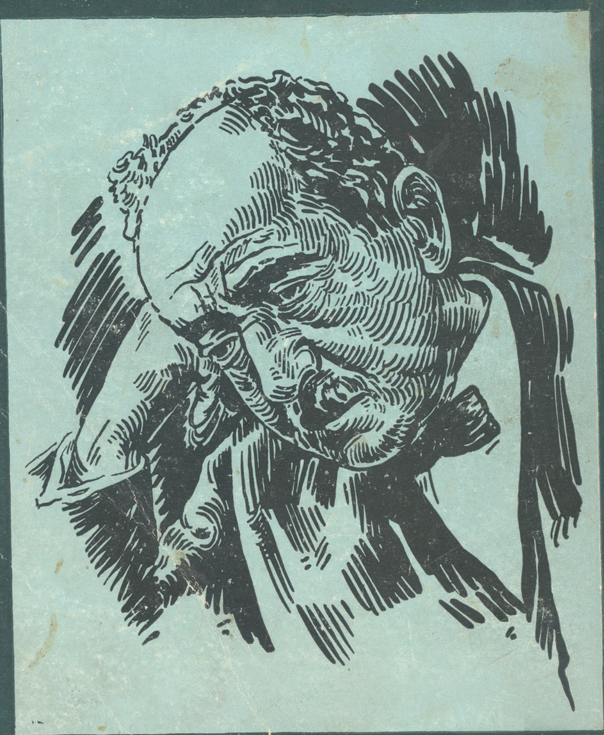
حياة شوقي

وضع
أحمد محفوظ



حياة شوقي

وضع

أحمد محفوظ

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

تصدير

للأستاذ الشاعر الكبير عزيز أباظه

يطيب لى أن أقدّم لهذا الكتاب القيم بغية الوفاء لشوقى ، الشاعر الذى أطلق القرائح من أصفادها التى رسفت فيها أحقاباً طويلة من الزمن ، فلقد استطاع بذهنه الخلاّق ، وخياله الخصب ، وعبقريته الملهمة ، أن يفتح فى الشعر العربىّ آفاقاً رحيبة المدى ، آفاقاً لم تتهيأ قبل ذلك حتى للأفذاذ القلائل من شعراء العربية ، فالذى لا مراء فيه أن شوقى كان بمثابة الرافد الذى أمد العاطفة والعقل والإنسانية بفيض سائغ من الفنّ الممتع ، والجمال الأخّاذ ، فشعره ألوانٌ من الاصالة والطلاقة ، وضروبٌ من العمق والإبداع .

وبعد . فأما ما رواه الشاعر الأديب — مؤلف هذا الكتاب — عن شاعرنا الخالد شوقى ، على أنه رآه وسمعه فعُهْدَتُه عليه ، وهو كما أعرفه رجل صادق ، أخذ نفسه فى هذا الموضوع الخطير الذى عالجه ، بالتثبت والحذر والدقة ، وأما ما أورده على أنه رأيه أو على أنه استنتاجه وتخريجه ، فسأحاول جهد الطاقة أن أتملّى الصورة التى رسمها لشوقى الشاعر ، وأنظر : هل مكّنته ريشته من أن يبرز الملامح الدقيقة لفنه ؟ أم اكتفى بالإيماء إلى جمال تلك الملامح ؟ ؟ هل حاول أن ينفذ إلى صميم عبقريته ؟ أم اقتنع بالوقوف عند أغوار منها ؟ ؟ هــذا مع توخى القصد ، رعاية لما ينبغى أن تكون عليه التقدمة من إيجاز .

فمن الحقائق التي لا يرين عليها الشك — فى رأيي — أن شوقى كان من أعظم شعراء العربية قاطبة ، مذ كان فى لغة الضاد شعر وشعراء ، ولو أننا وازنا بينه وبين فحول شعراء العرب — على الأغلب الأعم — لكان نصيبه الرجحان فى غير قليل من الميادين ، ذلك لأن العباقرة منهم كان نبوغهم — فيما أعلم — مقصوراً على لون أو ألوان من الشعر ، أما شوقى فقد ارتفع إلى قمة باسقة فى فنون الشعر جميعاً ، وكانت مواهبه تكاد تتكافأ فى كثير من المناحي والغايات ، فالقارئ الذواقة يتنسم فى شعره أريج العبقرية الخالقة ، ويحس بتيار الحياة يتدفق عنيفاً فى أعراق شعره ، ذلك لأن قريحته كانت أشبه بهالة الضوء التى تلاقت فيها إشعاعات الحياة ، ثم انسكبت تلك الإشعاعات فنوناً مختلفة من الأدب ، تتألق بالحياة والجمال .

وقد عرض صديقى المؤلف لجميع الأغراض التى نظم فيها شوقى ، ولكنه أوجز فلم يرتفع بمذاق القارئ إلى القيم الجمالية للشعر الذى صيغ فى تلك الأغراض ، ولو أنه فعل لما اتسع كتاب واحد لاستيفاء هذا العمل الضخم الجليل .

فحين راح يوازن بين ابن الرومى وشوقى فى شعر الطبيعة ، رأى أنهما متماثلان فى هذا المجال ، وفى هذا الرأى قليل من الغلو ، فابن الرومى كان من العمالقة الممتازين فى شعر الوصف ، وكانت طاقته الفنية فى هذا اللون أعظم تألقاً من طاقة شوقى ، ولكن العبرة فى مقاييس العبقرية بما تتسع له النفس من عناصر السبق والابتكار

والإبداع فى كل أودية الشعر على السواء . وهنا تظهر ميزة شوقى الكبرى على كثيرين من الشعراء .

وكذلك وازن المؤلف بين المتنبى وشـوقى ، وانتهى إلى أن المتنبى اغترف من معين الحكمة أضعاف ما اغترف شوقى ، وهذا الرأى ليس جديداً علىّ ، كما أنه ليس جديداً على القراء ، ولكنه رأى فيه نظر كما يقولون . فشوقى كان أعمق فكراً ، وأبعد مدى ، وأوسع ثقافة من المتنبى ، وآية ذلك أن ديوان المتنبى لم يضم بين دفتيه قصيدة برمتها فى التأمل وفلسفة الحياة ، اللهم إلا تلك القصيدة القصيرة التى مطلعها :

صحب النّاسُ قبلنا ذا الزّمانا وعنـاهم من أمره ما عنانا

وما ورد بعد ذلك من شعر الحكمة فى ديوانه فهو أشتات متناثرة ، بعضه وليد التجربة ، والبعض الآخر ، إما مقتبس من شعر أسلافه ، أو متفرع عن حِكَم الإغريق وغير الإغريق ومستخلص منها ، ولسنا نعرف للمتنبى مذهباً فلسفياً محدد المعالم والأصول ، وإنما هى خطرات لا تؤلف بينها وحدةٌ فى رأى أو عقيدة أو مذهب ، وهكذا نجد الأمر عند شوقى ، فما كتبه فى هذا المجال لا يدخل فى نطاق الفلسفة الحقّ ، مثله فى ذلك كمثل صديقه المتنبى وان امتاز شوقى — بصفة عامة — باشراق الديباجة ويسر الأداء ، ووضوح التنغيم ، وجمال الطّلاوة وهذه الميزات من أهم خصائصه الشعرية ، وهى التى مهدت له السبيل إلى منافسة المتنبى والاستعلاء عليه ، فى كثير من الحلبات التى استبقا

فيها ، وبينها حلبة الحكمة ، ولعل شوقى قد وفق أبعد توفيق فى تحديد مكانته من المتنبى بهذا البيت المشهور :

ولى درر الأخلاق فى المدح والهوى　　　وللمتنبى درةٌ وحصاةُ

وحين نقارن بين الشاعرين فى مجال الحكمة ، نكاد نقطع بأن شوقى كان أغزر من المتنبى مادة ، وأشد أصالة ، وأعظم إبداعاً ، ولنختر له مثلا فى فلسفة الحيـاة . قصيدته البائية — وليست من مشهوراته — ، فإنها تصف المراحل التى يجتازها الإنسان فى طريق الحياة من المهد إلى أن يفارق الدنيا ، مصورة أطوارها المختلفة فى دقة وبراعة تنمان عن فهم عميق وتجربة واعية ، واستقراء شامل لما تنطوى عليه الحياة من أسرار ، وما تنتهى إليه من غايات ونتائج ، والقصيدة التى نقصدها مطلعها :

ألا حبذا صحبةُ المكتب　　　وأحببْ بأيامه أحبب

وقد أزاح شوقى الحجاب فى شعر الرثاء عن المعانى الكامنة فى أطواء الزمن ، وعن العبر الماثلة فى موكب الأيام ، ولا ريب أن الرثاء هو النبع الحزين الذى تحوم على حافتيه طيوف الشجى ، والأفق الرهيب الذى تنفض النفس إزاءه غبار المعانى الترابية ، لترنّق لحظات فى عالم غير منظور ، عالم حافل بألوان الفلسفة الإلهية ، من الأزل البعيد إلى الحاضر المرئىّ ، حيث تتراءى نهاية الإنسان ، ومصيره المحتوم .

فى هذا اللون من الشعر نجد شوقى السباق المجلىّ فى استخلاص العظة الخالدة ، ونلمس روحه الشفيفة وهى منطلقة بأجنحتها الرفافة

فى آفاق الموت ، تخاطب الخالدين ، وتتأمل جلال الحقيقة الكونية فى هذا الإنسان الفانى ، فليست الحكمة فى شعر شوقى ضرباً من ضروب الوعظ الشائع ، كتلك التى نجدها عند أبى العتاهية مثلا ، وإنما هى تجربة روحية عميقة ، تمتزج فيها مشاعر الحزن الطاغية ، بسكينة الحياة الخالدة ، وقد أبرزها شوقى مجلوة مضيئة كأسنى ما يكون الجلال والروعة والتحليق .

وما دمنا قد ذكرنا شوقى والمتنبى — وكثيراً ما يذكرهما الناس معاً — فإنى أحل لنفسى أن أزيد فأقول ان فنّ شوقى يضفى على معانيه وضوحاً يسمو بها عن كل لبس وإبهام . فى حين أن المعنى ذاته عند المتنبى يتطلب كدّ الذهن ، وإمعان الفكر حتى يتضح ويبين . وسأورد لكَ على سبيل المثال طرفاً من شعر الشاعرين : يقول المتنبى فى إحدى قصائده :

من أطاق التماس شىء غلابا واغتصاباً لم يلتمسه نوالا

ويقول شوقى فى نفس المعنى :

وما نيـــل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ويسوق لنا المتنبى هذا المعنى فى فلسفة الموت ، أو فى الشك الذى يخامر العقول فيه فيقول :

تخالف النّاسُ حتى لا اتفاقَ لهم إلا على شَجَبٍ والخُلفُ فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء ســالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

ويصور شوقى نفس المعنى ، ولكن فى صورة يندر مثيلها فى شعر العربية فيقول :

سألتك ما المنية ؟ أى كأس ؟ وكيف مذاقها ؟ ومن السقاة ؟؟
وماذا يوجس الإنسان منها ؟ إذا غصت بعلقمها اللهاة ؟.
وأى المصرعين أشد ؟ موت على علم ؟ أم الموت الفوات ؟؟
وهل تقع النفوس على أمان كما وقعت على الحرم القطاة ؟؟
وتخلد ؟ أم كزعم القوم تبلى كما يبلى العظام أو الرفات ؟؟
تعـــالى الله رافعها إليه . . وناعشها كما انتعش النبات

ولا يخفى أن ما قاله المتنبي معنى شـــائع فى نفوس المرتابين ، وأما شوقى فانه دفع الشك بالإيمان بعد تغلغل شامل فى معانى الموت وما بعد الموت .

ويلم المتنبى كذلك بمعنى معروف متداول فيقول :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجد ذا عفـــة فلعـــلة لا يظلم

ولكن انظر كيف أورد شوقى المعنى نفسه فى صياغة فريدة :

قسما لو قدروا ما احتشموا لا يعف الناس إلا عاجزين

ويطول بنا الحديث لو أفضنا فى إيراد الأمثال التى عالجها الشاعران العظيمان ، وظهر فيها شوقى بالوضوح والتفوق .

وقد أخذ صديقى المؤلف على شوقى أن شعره فى الغزل لا ينبض بحرارة العاطفة ، ومجانبةُ الصواب لهذا الرأى لا تحتاج إلى إفاضة ، لأن انبثاق العواطف فى النفس البشرية من الخصائص التى تتألق بها حيوات الشعر جميعاً . ولكن ربما اختلفت هذه العواطف باختلاف بيئة الشاعر ونشأته ، فعاطفة الشاعر القبلى تماثل لون حياته فى الصرامة

والقوة والعنف ، أما عاطفة الشاعر المتحضر فقد تكون — على عنفها — هادئة متسلسلة كالنبع الرقراق ، لأنها تتكيف بالعوامل التى تحيط بالشاعر ، وهى الرقة والوداعة واللين ، فعاطفة شوقى كنشأته ، فيها كثير من الترف ، ولذلك استسرت على الذين ألفوا الغزل الجارف العنيف عند شعراء القبيلة والصحراء . والأدلة على هذا الذى نقوله تتزاحم فى ديوانه الحفيل بالغزل المرقص السامق .

وإذا كانت عاطفة شوقى فى الغزل كالسلسل الهادئ فانها صلصلت كالتيار المندفع ، تتجاوب أصداؤها فيما نظمه عن العرب والعروبة ، وما حفز به همم أهل الشرق عامة ، والمسلمين خاصة ، حتى صارت قصائده فى هذا المنحى أنشودة الذين يتعشقون الحرية ، ويذودون عن أوطانهم بالأرواح والدماء .

وأشار المؤلف إلى ما وجه لشوقى من نقد ، أشار إشارة خاطفة لا تحدد هدف الناقد ، ولا مكانة المنقود ، حتى يتهيأ لنا الوصول إلى حقيقة ما ينطوى عليه النقد من هدم أو بناء ، فالنقد فى ذاته أداة من أدوات صقل الشاعر ، وإبانة مواطن الضعف فيه ، ولكن أغلب النقد الذى وجه لشوقى أملته دوافع لا تمت إلى البناء الفنى بصلة من الصلات .

ولعل أهم ما تأثل به شعر شوقى الموسيقى النفسية ، فلقد كانت موسيقى شعره تنبع من نفسه ، وتنبثق من مشاعره ، وكانت اللغة طيعة سهلة القيادة فى يديه ، لذلك امتزجت موسيقى الإحساس فى نفسه بموسيقى الأداء ، وتألف من إيقاعهما فن سحرى جميل ، تهتز له

الروح قبل أن تطرب الأذن ، فشعره غنائى على اختلاف أوزانه ومناحيه ، وهو فى وقتنا الحاضر — وسيظل إلى الآماد البعيدة — المعين الصافى الذى تنهل منه الموسيقى والغناء . بالرغم مما اعتور أذواق الكثير من الناس فى السنوات الأخيرة من ميل إلى الفسل التافه من التواليف المؤسَّدَة للغناء .

وقد فتح شوقى أفقاً جديداً فى سماء الأدب العربى ، حين اتجه إلى تغذية المسرح بألوان خلابة من الروايات الشعرية ، ومهما اختلفت مقاييس الأدباء وخبراء المسرح فى تقدير القيم الحقة لتلك الروايات ، فهناك شىء يتفقون فيه ولا خلاف عليه ، وهو أن شوقى أتى فى مسرحياته من انسياق فى الحوار ، واتساق فى المرائى ، وإبداع فى تصوير المواقف والشخصيات ، أتى فى كل ذلك بما يعيى الكثير عن إدراكه ، وبلوغ غايته ، وإذا كان الهيكل الفنى للرواية لم يلق الدقة والإحكام على يد شوقى — كما يقول بعض هؤلاء — ، فما ذلك إلا لأن المسرحية الشوقية كانت فى طورها الأول لم تستقر بعد .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان شوقى حين يضع الشعر فى المكان الأول فى مسرحياته فانما يواكب الأوضاع التى تمثلت فيها المسرحية الشعرية فى ذلك الوقت . وهذا مَعْلَمٌ أحب أن أعطف اليه النقاد علَّهم يجدون فيه إيضاحاً لمـــا استغلق عليهم فهمه فى المسرحية الشوقية . فالثابت أن المسرحية الشعرية فى مطلع هذا القرن كانت تعانى منافسة ذات خطر تشنها عليها المسرحية النثرية المجللة بالغار بعد تلك القيم الرفيعة التى أصعد بها إليها « إبسن » ومدرسته . ويضاف إلى ذلك

ما كان قد أصاب المسرح من تخلف فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن المــاضى بسبب إحجام فحول الشعراء عن تغذيته بانتاجهم حتى لكان الكثيرون منهم ينظمون مسرحياتهم لتقرأ لا لتمثل كما فعل الشاعر الكبير اللورد بيرون مثلا .

ولست أتجنى على الحقيقة إذا قلت : إن كثيرين من نقاد المسرح الغربى المعاصر والمشتغلين به يستشعرون عنتاً بالغاً فى إخراج مسرحية « جيته » الخالدة « فاوست » . ذلك لتغلب الشعر فيها على مختلف الاعتبارات المسرحية الأخرى . فهى حفيلة بالقصائد الطوال التى يشق على الممثل أن يلقيها . والتى يصعب على جمهور النظاره أن يتحملوها مهما تبلغ مكانتها من الأصالة والبلاغة .

وهذه أيضاً كانت حال المدرسة الشعرية الانجليزية فى أوائل هذا القرن . تلك التى تزعمها « مانسفيلد » « و بوتملى » الشاعران اللذان تأثرا كثيراً بأديب روسيا الكبير وفيلسوفها الفرد « تولوستوى » وتتلمذا على كتابه العظيم « ماهية الفن » .

إذن فشوقى حين كتب مسرحياته لم يكن جاهلا بالمسرح كما يحلو لنقاده أن يقولوا ولكنه كان منفعلا بشعراء المسرح الغربى وقتئذ فكان يتعالى بشعره أن تحده الأنماط والقواعد التى اصطلح كتاب المسرح على تسميتها بالحبكة المسرحية ، والحركة المسرحية وما إلى ذلك .

وهناك ظاهرة أخرى أود أن أنبه إليها على سبيل تأصيل المسائل . تلك الظاهرة هى أن نقاد المسرحية الشوقية دأبوا أن يعقدوا المقارنات بينها

وبين مسرحيات شكسبير بالرغم من الاختلاف الكبير بين النظرية المسرحية التى خلقها هذا . وتلك التى أخذ بها ذاك . والواقع الذى لامراء فيه هو أن شوقى لم يتأثر بالمسرحية الشكسبيرية قدر تأثره بمسرحيات القرن السابع عشر التى كان « كورنى وراسين » بين فحول روادها فى فرنسا والشاعر الكبير « دريدن » بين داعمى أركانها فى إنجلترا . وأقصد بمسرحيات القرن السابع عشر تلك التى كان قوامها واطداً على اصطراع دائب بين عواطف الحب من جهة ونداء الواجب من جهة أخرى . وعندىأن نقادنا إذا هم عنوا بدراسة ذلك النوع من المسرحيات فانهم بالغون من غير شك إلى مزيد من الكشف الهادى عن المسرحية الشوقية .

هذه عجالة عن الجوانب الفنية فى شعر شوقى ، تناولها المؤلف بالدراسة التى أحببت أن أعقب عليها بهذه الكلمة العابرة ، وعندى أن المؤلف الفاضل قد جلا دراسته فى أسلوب ممتع ، وعرض رائع ، مما يدل على مدى تقديره للأدب ، ومقدار استساغته للشعر الرفيع ، وقد وافقته فى بعض آرائه ، وخالفته فى البعض الآخر ، هذا مع تقديرى للطاقة التى حشدها للكتابة عن شاعر عظيم،أضفى على العربية مجداً شامخاً لم تظفر بمثله على مدار القرون .

وخليق بى أن أقف هنا وقفة قصيرة ، فهذا كتاب يتحدث عن شوقى ، سبقته فى بعض اتجاهاته كتب قليلة ، ولقد كان هذا الشاعر الخالد حقيقاً أن يكون موضوع كتب ترادف ، وما زال بحمد الله كثيرون من الأدباء فى مصر والشرق ممن عاصروا شوقى أو أدركوه

فى عليا مراتبه ، ما زالوا يتمتعون بنعمة الحياة ونعمة القدرة على البحث والدراسة .

إن شوقى ذخيرة هـــذا الجيل للأجيال المقبلة ، فان لم تتألق هذه الذخـــيرة على حقيقتها ، وإن لم يتضح جوهرها الأصـــيل على يد من واكبوا شوقى ، وعرفوه عن كثب ، فما أبهظ العبء الذى سنخلفه لأعقابنا حين يقبلون على بحث هذه العبقرية ، وبعضُ معالمها مجهول لهم ، أو مستسر عليهم .

فهل لى أن أهيب اليوم بأولئك الأدباء ، أن يتناولوا شعر الرجل وفنه وظروفه وملابساته بالدراسة والتعقيب ، إنهم إذا استجابوا لندائى هذا سيدخلون التاريخ معه ، لأنهم سيجلون مصباحاً من مصابيح الزمن ، كلما كر الزمن سطعت أضواؤه ، وكرم لألاؤه . وقد ينبهُ ذكر العظيم بالعظيم .

وهل لى أن أتقدم بهذا الاقتراح نفسه إلى المجمع اللغوى ، وفيه جلة أدبائنا وعلمائنا . وهل لى كذلك أن أبعث بصوتى هذا إلى كلية الآداب ، أطلب إلى عميدها الجليل أن يبعث الروح فى « كرسى شوقى » ، ذلك الذى أنشىء — فيما أعلم — منذ سنوات وبقى إلى الآن شاغراً . فلا ريب أن ما سيلقى من فوق ذلك المنبر سيكون مادة كريمة ، لأدب شوقى الكريم .

وهل لى — بعد ذلك كله أو قبل ذلك كله — أن أدعو السيد وزير التربية والتعليم أن يتبنى اتجاهاً كهذا ، وأن يحث عليه ويرصد له الجوائز ، حتى يتسنى لنا أن نساير العالم فى تكريم أدبائنا ، وأن نحتفى بما خلفته العبقرية العربية من ذخائر وروائع .

بسم الله الرحمن الرحيم

من حق صديقى القديم – إن أجاز هذه الصداقة – أن أتقدم للأستاذ عزيز أباظه شاعر المسرح وخليفة شوقى فى هذا بوافر حمدى وعظيم ثنائى .

فقد كنت كلما جلست إليه . ذكرنا شوقى الخالد وتحدثنا حوله أويقات ملؤها الذكريات الحلوة . فقد كان عزيز صديق شوقى وتلميذه . ولكنه لما كان يعلم أننى كنت ألصق به منه . وأنى صاحبته إثنى عشر عاماً صحبة دائمة . لفتنى إلى وضع كتاب يشمل حياته كلها .

وقد عزمت عند وضعى هذا الكتاب أن أطرح أمرين ، وأستمسك بأمر .

عزمت أن أطرح الملق والحقد وأستمسك بالحقيقة كما ألمسها أنا .

فان جاء فى هذا الكتاب شىء يمس النوازع البشرية من شيعة شوقى وخصومه . فليس لى أن أعتذر للفريقين . وليس لهم أن يرغمونى على الاعتذار .

فكل ما علمته واعتقدت أنه حق أودعته صحائف هذا الكتاب .

ولو تملق المؤرخ عواطف الناس . وتهيب سخطهم لضاع التاريخ .

أحمد محفوظ

دار الكتب المصرية


نشأته

نمزار . . نمزار . .

بهذا الاسم الأجنبي . دعا ذلك الرجل البدين القصير .

ذلك الرجل الذى أغرق مصر فى الديون . ومكّن للأجانب فى التسلّط على البلاد . وشاد القصور. واقتنى أجمل الجوارى وأنفق على حفل واحد مليوناً من الجنيهات . وقتل وزراءه غيلة وكان يتشبه بلويس الرابع عشر فى بذخه وإسرافه .

ثم نسل فاروقاً من ابنه فؤاد

دخلت الجارية تتعثر رهبة من هذا الجالس فى ذلك الصالون الفخم الرائع الأثاث .

وقد أعجلها الصوت الرهيب عن أن تنزل حفيدها الطفل المضعوف عن كتفيها . ذلك الطفل الذى كانت تختلج عيناه ناظرة إلى السماء .

فلم يستنكر اسماعيل الرهيب حمل الطفل على كتف هذه الجارية التى أسرها أبوه فى حرب المورة . فقد كانت جارية أبيه وأثيرة عنده .

فليس من آداب الملوك أن تدخل عليهم الخدم حاملين أطفالا . ولو كانوا أطفال الملوك أنفسهم .

فللملوك آداب وبروتكول يجب أن تراعى .

فهذا المنصور الخليفة العباسى ، دخل عليه ابنه المهدى من غير إذن . فاستنكر المنصور دخوله وقال : اذهب إلى حاجب الباب وأضربه أربعين عصى واعزله عن الباب ثم ولّى الربيع مكانه .

فذهب المهدى ونفذ أمر أبيه . وضرب الحاجب وعزله. فلما جاء الغد وأراد أن يدخل على أبيه من غير إذن زجره الحاجب الجديد . وقال : لو عدت إلى مثلها لضربتك ثمانين عصى . أربعين لجنايتك على الحاجب بالأمس . وأربعين لجنايتك على.

فاستأذن المهدى . فأذن له أبوه فدخل يبكى وشكا الحاجب الجديد وسوء أدبه. فقال المنصور : اخرج إليه وأمر له بأربعين ألف درهم.

ولكن اسماعيل لم يفعل مع نمزار ما فعله المنصور مع ابنه بل رحب بالجارية . ونظر فى عطف إلى هذا الطفل المضعوف الرافع عينيه إلى السماء . وسأل الجارية عن علة عينى حفيدها . فلما قالت : إنه يا مولاى لا يزال هكذا أبداً ناظراً إلى السماء .

أخرج هذا الرجل المسرف السفيه الذى لم يعرف فى حياته للذهب قيمة والذى كان يغترف منه ما يشاء ثم يلقيه إلى حيث يشاء بغير حساب

أخرج هذا الخديو الشهوى السمين قبضة من الذهب من جيبه المملوء دائماً به . والذى امتصه من دماء الشعب المسكين وتقاضاه ضرائب فادحة سلبها بالسوط والسيف .

فلما رأى الطفل ذلك المعدن الوهاج يتناثر أمامه على البساط العجمى الثمين ، لفته البريق الأخاذ فخفض عينيه المرتفعتين من السماء إلى الأرض المنثور عليها الذهب فشغل بالنظر إليه .

فضحك هذا الجبار وقال للجارية الماثلة أمامه : كلما رفع عينيه انثرى له ذهباً حتى يتعود النظر إلى أسفل .

فابتسمت الجارية فى ملق المملوك المستعبد وقالت :

هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى .

كفلت هذه الأسرة حفيدها لابنتها : أحمد شوقى بن على شوقى ابن أحمد شوقى : الذى قدم مصر يحمل وصاة من الجزار والى عكّة إلى محمد على والى مصر ليعمل فيها . وكان كردياً عربياً .

فرحّب به ذلك الوالى الذى كان يرحّب بكل غريب عن مصر فيقلّده أسمى المناصب . ويترك أبناء البلاد عاطلين منبوذين .

وعمل هذا الرجل أميناً للجمارك المصرية .

وكان عملا جليلا . فقد مات غنياً . ولكن ابنه أضاع هذا المال فلم يترك للطفل المرتفع العينين شيئاً .

كفلت الجارية الطفل لابنتها التى زوجتها من على شوقى . والتى نسلتها من زوجها أحمد بك حليم الأناضولى الوافد أيضاً إلى ابراهيم باشا . والذى نال عنده حظوة عظمى جعله يزوّجه هذه الجارية الأثيرة عنده وأعتقها .

وقد تقلّب أحمد بك حليم فى نعمة هذا البيت حتى تقلّد وكالة الخاصة الخديوية فى عهد اسماعيل .

فلما مات تذكّر الخديو البدين حبّ أبيه لجاريته المعتوقة فأورثها راتب زوجها وسماه معاشاً .

فحسن حالها . وساء حال ابنتها المتزوّجة هذا المسرف الذى أضاع مال أبيه أحمد شوقى فى سكرة الشباب كما يقول ابنه شاعر الشرق

أخذ الطفل ينمو واحتاج إلى الدرس . فرأى أبوه أن يسأل جدته فى إلحاقه بكتّاب الشيخ صالح.

فوافقت نمزار . وهى تجهل رقة الغلام وإرهاف حسّه . وإن كانت لا تجهل ضعفه وسوء حال عينيه .. اختلف الطفل إلى الكتّاب. فكان يلقى عنتاً وعراماً من هؤلاء الصبية المختلفة أذواقهم . والذين كانوا يجنحون إلى الشراسة وسوء الأدب لوضاعة أصولهم ولئيم أعراقهم .

كان هذا الطفل الحالم الرقيق يضيق بهؤلاء الصبية الغلاظ الجفاة ويضيق بألعابهم الخشنة ووقاحتهم المنحدرة إليهم من آبائهم وأمهاتهم .

ولكنه لا يستطيع الشكوى . لأن أدب البيت التركى ماثل فى بيت على شوقى . هــذا الأدب الذى يوجب على الأولاد الطاعة لآبائهم ورغباتهم مهما بدت شاذة وعنيفة .

فامتثل الطفل المسكين . واحتمل العذاب أربع سنوات فى هذا الضجيج المقيت تحت سيطرة الفقى والعريف . حتى آذن الله بالفرج . وانتقل إلى مدرسة المبتديان الابتدائية .

فوجد أن الوسط التعليمى فى هذه المدرسة أحب إلى نفسه وأخف على حسّه المرهف . حيث التلاميذ أميل إلى النّظام منهم إلى الفوضى الضاربة فى هذا الكتّاب العتيق المرذول.

فانتعشت نفسه ومال إلى الدرس . لأن طبيعته حب الدرس والتطلع إلى المعرفة .

واتخذ من هؤلاء التلاميذ الصغار أصدقاء كان لا يجدهم فى الكتّاب .

لأن السوقة كانت لا تبعث بأولادهم فى ذلك العصر إلا للكتّاب حتّى إذا حفظوا بعض سور القرآن الكريم سلتهم من الكتاب وقذفت بهم إلى حانوت الحداد أو النجار أو المنجد . أو غير ذلك من الحرف .

ولم يكن يدخل المدارس الابتدائية إلا الذين سهيئون لتلقى العلم واتخاذه حرفة .

وكان هؤلاء عادة من أولاد الموظفين أو من أولاد الاقطاعيين الذّوات وهم ليسوا فى غلظة الصنف الأول وعنفه.

اطمأن الطفل إلى حياته الدراسية الجديدة . وواصل الدرس حتّى انتقل إلى التجهيزية .

وهناك تفوق تفوقاً عظيما . فكان الثانى فى المدرسة كلها . فحقت له المجانية . فكانت فرجاً لعلى شوقى الفقير وتخفيفاً للمعتوقة نمزار عن مالها الذى كانت تبذله فى العناية بالطفل وتعليمه .

وفى إبان تلقيه الدرس وتعلمه اللغة العربية هفت نفسه الموهوبة إلى الشعر . والفن موهبة ملحّة لافكاك منها فهى نبوءة صغرى .فنظم هذه الأبيات :

أفريقيا قسم من الوجـود	فى شكله أشبه بالعنقود
وذلك العنقود فى الماء انغمر	ما أملح الماء وما أحلى الثمر
مدّت إليهـا يدها أوربا	من فوقه كمن يريد الحبا
وآسـيا بالجنب كالمحتال	ينقصنه من شرقه الشمالى
وبين هذين ترى القنـالا	يتصل المـاء به اتصالا
أنشأه اسماعيل عنوان الظفر	قد وقع الحافر فيما قد حفر

فهى أبيات ساذجة ولكنها تحمل فى معانيها خيالا يتفتح ينبىء عن مستقبل لهذا الشاعر الصغير .

انتهى التلميذ أحمد شوقى من دراسته التجهيزية . فاشرأبت نفسه تتطلع فرأت أن دراسة الحقوق أليق بموهبته الشاعرة . لأن علم الحقوق وثيق الصلة بالأدب . فهو فن الكلام . وفيه خيال وفيه تلاعب بالألفاظ . وفيه خطابة . وفيه قصة الحياة كلها . فالجريمة والبيع والشراء والخداع والذنب والعقاب والعفو والرحمة والقسوة .. كل هذه أشياء يظللها علم الحقوق ويبسط عليها جناحيه .

والأدب أيضاً يجرى على هذا الطريق. فهو يتولى كل هذه الأشياء فيصقلها ويفرغ عليها طلاءه البراق

ويتركها فناً يلهب الأذواق ويثير المشاعر

فكان لا بد لشوقى أن يسلك طريق تعلم الحقوق . فسلكها وقد عاونه على تعلم الحقوق راتب حبس عليه من وزارة المعارف قدره مائتا قرش .

ولكن حب هذا الغلام اليافع فى الاستقلال والاستغناء عن معاونة السيدة العجوز . ورغبته فى المال من وظيفة مضمونة دفعه إلى ترك الحقوق والالتحاق بقسم الترجمة . وهذا قسم أنشىء حديثاً ليخرج مترجمين للوظائف الحكومية . ليجد المحتل الجديد الداخل سنة ١٨٨٢ معاونين له بلغة غير العربية .

كما كانت السراى تحتاج إلى موظفين تخاطب بهم قناصل الدول وتكاتبهم .

قدر شوقى هذا . كما كان يقدّر لنفسه العمل فى السراى الخديوية . حيث كان يعمل أجداده . وهو معروف هناك . ولم تنقطع الصلة بينهما ، فهو يمدح توفيقاً فى قصائد تنشر فى الصحف . كما كانت جدته وأبوه يترددان عليها .

ولم ينس توفيق معتوقة جدّه ابراهيم ولا ذويها .

فان شوقى لم يكد ينال إجازة مدرسة الترجمة حتى دعاه توفيق إليه وهنأه ووعده بالعمل فى السراى كما وعد أباه من قبل .

وتردّد الشاب بلا عمل شهوراً . حتى إذ كان يوماً كثر غيمه وهطل مطره . خرج الشاب راكباً حماراً إلى وجهة يبغيها . فلما عاد من وجهته قافلا إلى بيته . سلك إلى هذا البيت ميدان عابدين . فبصر بتوفيق فى شرفة السراى يواقف رجلا ويحادثه . فنزل عن دابته وترجّل وترك الدابة للخادم يقودها ثم سلك الميدان راجلا .

فبصر به توفيق فأرسل فى استدعائه . وكان قد هيأ لأبيه عملا عاجلا وله عملا آجلا بعد شهر .

وكان مروره أمامه تذكيراً له بإنهاء هذه البشرى له ثم لأبيه .

فلما مثل بين يديه تظاهر توفيق بالغضب . وقال : أليس لى أن أنظر من شرفة دارى حتى تترجل عن حمارك . وتحرجنى حتى أنزوى .

وهذا منطق غريب من الخديو يحادث به شاباً عاطلا يراه غرس بيته وأسير نعمته .

وهذه عادة مألوفة عند العمد فى الريف لا يمر أمامهم إنسان راكباً دونهم فى الوجاهة أو فى الثراء إلا وترجل تعظيما لهم .

ولكنّ الغالب أنه أراد أن يفتتح مع الشاب الحديث فاختار هذا العذر المتواضع .

وأدرك شوقى ذكاؤه وأسعفته فطنته فقال : العفو يا مولاى هكذا أدّبنا الأوائل . وتمثل ببيت أبى نواس فى محمد الأمين :

وإذا المطىّ بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

وقد عيّن أباه توفيق مفتشاً فى الخاصة . ولكنه وقد أعجبه جواب الشاعر وتمثله ببيت أبى نواس رأى أن يتم الفتى الأديب تعليمه فيدرس الحقوق التى اقتضب درسها ليلتحق بقسم الترجمة .

رأى أنه إذا ظل بوظيفة فى معيته اقتضب حظه من الدرس .

وخرج الفتى ناقص المعرفة . وقد لمح ألمعيّته فى جوابه وفى شعره الذى كان يمدحه به . فأمر له براتب ستة عشر جنيهاً فى الشهر ليستعين به على الحياة فى أوربا الذى قرر إرساله إليها .

وقد اختار له جامعة مونبليه حيث يدرس هناك الحقوق سنتين حتى إذا أتمهما ذهب إلى باريس ليدرس سنتين أخريين .

ونصحه أيضاً أن ينظر فى الآداب الفرنسية جنب تعلّمه الحقوق ليستفيد منها علماً يشحذ موهبته ويغذّيها ويوسع أفقه ليسير مستقيما فيما هو ميسّر له .

وقد أمر له بمائة جنيه عدّة لسفره .

فتهيأ الفتى لهذا السفر . واغتبط على افندى شوقى لهذه الفرصة المتاحة لولده أحمد لاستكمال درسه . حتى إذا كان يوم السفر بكت

والدته بكاء حاراً فهو وحيدها وليس لها غيره سوى بنت واحدة كبرت حتى تزوجت رجل تعليم . وماتت قبل أخيها أحمد بسنوات .

واجتمع في دار علي شوقي في الحنفي الجيران يودعون هذا الشاب النحيل العصبي المزاج المسافر إلى بلاد بره .

وأقبلت الأسرة القديمة وقد كللها الشعر الأبيض وجعل منها سيدة نبيلة وقوراً . ونظرت بعين الأسى إلى أسرتها في الموره حيث استلبها من قومها وأهليها رجال غلاظ يحملون الخناجر ويرتدون السراويل والطرابيش التي تتذبذب أزرارها على آذان لابسيها . وأسلموها إلى رجل أبيض اللحية لايعرف إلا صناعة الحرب . فاتخذها جارية ، نظرت الأسيرة القديمة إلى هذا الماضي البعيد المملوء بالأسى .

ونظرت إلى حفيدها الذي أحبته وكفلته . ورأت الماضي يجذبه الحاضر . أيُسلب منها الغلام المضعوف المختلج العينين ليطوّح به إلى بلاد بعيدة . فذكرت حالتها وبكت ماضي الجدة في حاضر الحفيد .

عوت الباخرة بالفتى الصغير وتكاثر حولها الموج الصاخب وأقلعت . فما زالت تعلو وتهبط حتى ألقت بصدرها على ميناء مرسيليا واستقرت هناك .

فاذا بنبأ وصول هذا الطالب يسبقه إلى رئيس البعثة المصرية . وإذا أمر أفندينا ينتقل به إلى مرسيليا من مونبليه لاستقبال هذا الوافد الأميرى .

رحب رئيس البعثة ترحيباً عظيما بطالب مولاه في عابدين واصطحبه معه حتى أدخله جامعة مونبليه .

فإذا الشاب الذى ترك الطربوش فى مصر يلبس قبعة لاصقة برأسه الكبير ويتّشح برداء هملت .

ويختلط بالطلبة الفرنسيين ويتخذ منهم خلان وأصدقاء، ويلمح هناك شاباً مصرياً نابهاً . رفعه مستقبله إلى وكالة وزارة المعارف ومات شاباً . فبكاه صديقه القديم . وذكر تلك الأيام الحلوة أيام الشباب والدرس فقال :

انى التفتّ إلى الشبا	ب الغابر المتمثّل
ووقفت ما بين المحقّ	ق فيه والمتخيّل
فرأيت أياماً عجلا	ن وليتها لم تعجل
كانت موطّأة المهـا	د لنا عذاب المنهل
ذهبت كحلم ، بيد أن	الحلم لم يتأوّل
إذ نحن فى ظل الشبا	ب الوارف المتهدّل
جاران فى دار النّوى	متقابلان بمنزل
أبكى وأبكك ضاحكا	ن على خمائل مونبلى
والدرس يجمعنا بأفضـ	ـل طالب ومحصّل
أيام نبذل فى سبيـ	ـل العلم ما لم يُبذل

ويمرّ العام على الفتى الغريب ويشتاق إلى أبيه وأمّه وإلى تلك السيدة الوقور فأراد العودة لمرآهم .

ولكن أفندينا الذى كان له ولد مثله يطلب العلم فى فينا أبى عليه العودة السريعة وبعث له بمال ينفقه فى عطلته .

فرضخ الفتى ونزل ضيفاً على زملائه فى الريف الفرنسى ينتقل بين بلد وآخر وهو سعيد جذلان .

وفى عامه الثانى نزل هذا الفتى انجلترا سائحاً . فضاق بجدها وإن أطرى تقدمها الصناعى ولم يعجبه فيها إلا مدائنها التى تقع على بحر الشمال .

وفى عامه الثالث مرض الفتى مرضاً شديداً أشرف فيه على الموت. حتى إذا أبل منه رأى أطباؤه أن يستشفى فى بلد معتدل المناخ . فاختار الجزائر فذهب إلى هناك وقد أعجبه جو البلد ولكنه ضاق بانحدار أهله إلى عادات المستعمر الفرنسى ولغته .

وتخرج الفتى فى جامعة الحقوق وأصبح حقوقياً . وأراد أن يعود إلى الوطن . فاستمهله السيد الجديد الذى خلف أباه على العرش ستة أشهر ليتزود من باريس آدابها وعاداتها .

ولم يكن شوقى يعلم أنه سيكون لهذا السيد الجديد كل شىء . سيكون شاعره . وكاتم سره ورسوله إلى أغراضه السياسية .

وثق السيد فى ربيب أبيه قبل أن يلقاه فأوفده وهو غض الإهاب غير مجرب إلى مؤتمر جليل الشأن عقد فى جنيف .

كان هذا المؤتمر يجمع الجلة من المستشرقين . فرحل إليه هذا الفتى الذى لم يترك الدرس إلا من أعوام قليلة .

ولم نعلم ماذا فعل هناك . وكل ما نعرفه عن هذا المؤتمر أنه نظم

فيه قصيدة بليغة . هى أول عهده بالشعر الفخم الرقيق . وهى قصيدة طويلة قالها فى تاريخ مصر . ومستهلها هكذا :

همّت الفُلك واحتواها الماء ... وحداها بمن تُقلّ الرجاء

ثم يعود الفتى إلى القاهرة . ويلتحق بالديوان الخديو تحت ظل عباس الثانى . ويتّصل الفتى بمولاه اتصالا وثيقاً ويفيد الخديو الشاب من الشاعر الشاب فى مهامه السياسية كما قدّمت .

ويحب الخديو شاعره فيختار له زوجة كريمة لرجل ثرّى كريم فيحسن حاله وتقبل عليه الدنيا .

فيمرح ما يشاء له المرح ويعبث ما شاء له العبث . وهو آمن فى ظل عباس الثانى الذى لم يلفته إلى لهوه وعبثه رغم تمسك هذا الخديو بالدين وتزمته الظاهر فيه .

والعجيب أن شوقى الشاعر عاشر الخديو طوال مدة حكمه ولم يتعرّض لنكبة . ولم يلحقه ملل الملوك . هذا الملل الذى ينصرف إلى الندماء والحاشية .

فقد كان شوقى كيّساً لبقاً . لم يعرف الدس ولا الوقيعة بأحد . لهذا لم يسع به أحد إلى مولاه . فقد كان شاعراً يعيش بخياله المحلّق ويتقلّب فى أهواءه وفلسفته الخاصة .

بهذا سلمت له أيامه مع عباس الثانى .

وفى إبّان ذلك تموت السيدة الأسيرة . فيذكر لها شوقى تلك العناية به والقيام على شئونه فيرثيها بقصيدة فيقول :

خلقنـــا للحيـــاة وللممات ... ومن هذين كلٌ الحادثات
ومن يولد يعش كأن لم ... يمـــرّ خياله بالكائنات
ومهد المرء فى أيدى الراوقى ... كنعش المرء بين النائحـــات

وبعد قوله فى فلسفة الموت التى لم تبرح خياله قط قال فى جدته :

صلاة الله يا تمـــزار تجزى ... ثراك عن التلاوة والصلاة
وعن تسعين عاماً كنت فيها ... مثال المحســنات الفضليات
بذذت المؤمنات فقال كلٌ ... لعلك أنت أمّ المؤمنات
وكانت فى الفضائل باقيات ... وأنت اليوم كلّ الباقيات
تبنّاك الملوك وكنت منهم ... بمنزلة البنين أو البنات
يظلون المناقب منك شـــتى ... ويؤون التقى والصالحات
وما ملكوك فى سوق ولكن ... لدى ظل القنا والمرهفات
فكنت لهم وللرحمن صـــيدا ... وواســـطة لعقد المسلمات
تبعت محمداً من بعد عيسى ... لخيرك فى سنيك الأوليات
فكان الوالدان هدى وتقوى ... وكان الولد هذى المكرمات

ثم مدح نفسه بعـــد ذلك وافتخر بها متأثراً بالمتنبى الشـــاعر الحبيب عنده .

وظل الشاعر مع مولاه يمدحه ويصادقه حتى سنة ١٩١٤ حيث خلع الخديو . ونفى الشاعر إلى اسبانيا .

وقد خيره الإنجليز فى المنفى فاختار اسبانيا . ولم يرغموه على الذهاب إلى مالطة كباقى المصريين الذين لمسوا فيهم خطر الثورة عليهم .

فمكث فى المنفى خمس سنين عاد بعدها إلى الوطن .

صفاتهُ وعاداتهُ

هضيم الوجه قصير . إذا مشى سمعت لنعله احتكاكاً بالأرض يدل عليه وأنت دونه فى حجاب .

إذا أخذ طريقه فى أغراضه تعلقت يده بمكان العروة العليا من من ردائه فهو ممسك بها دائماً . وربما حمل بين أنامله مبسم سيجارته ، فاذا أعوزه الارتشاف من سيجارته رفع يده بمقدار ما يصل المبسم إلى فمه ، ثم خفضها إلى الموضع من عروته العليا .

إذا نظر إليك رأرأ بعينيه . وأخذ يراوح بينهما ، يرفع واحدة ويخفض أخرى . فهو كبعض الطير فى هذا .

تنطبق شفتاه انطباقاً محكماً . فلا ترى أسنانه إلا حين يستغرب ضاحكاً .

وقد كان يعجبه هذا من خلقه فيقول : إن الشفتين المنفرجتين تفصحان عن بلادة صاحبهما ، وقد لفته إلى ذلك طبيب أسنانه فحمل إلينا تلك اللفتة مسروراً بها .

لا يتعلّق جوربه بساقه أبداً ولا يمسكه ماسك . فهو أبداً مسترخ فوق حذائه. لم يرقط بغير صدار . فاذا جاء الشتاء ظاهر بين صدارين أعلاهما من صوف الجمل استفاض حتّى جاوز الحاكته وبان منها .

لا يعنى بالأناقة قط رغم غلاء قماش أرديته ، فهو فى ذلك كاسماعيل المفتش الذى يروى عنه الرواة أنه إذا طالعك خلته أنه ينام فى أثوابه رغم بذخه وغناه وعظيم سلطانه .

كل بنائقه منشّاة شتاء وصيفاً . لم يرسل منها كرفته قط . إنما هو بمباغ تحمله حديدة كالخطّاف تتشبّث بالبنّيقة المزدوجة المنشّاة .

قصير الطربوش أحمره ضيق بعض الشيء . ضيق يكشف عن صلعة يحفها شعر أربد . حليق الذقن دائماً يكره أن يعفيها من الموسى يوماً واحداً .

لأن إرهاف أعصابه وضيق صدره يأبيان عليه ذلك . يباشر ذلك خادمه الخاص . فقلة صبره تمنعه أن يصنع هو ذلك لنفسه .

وقد دفعه اعتناؤه بالحلاقة واحتفاؤه بها لافتتاح صالون مزيّن فى إحدى عمائره فى شارع جلال . ونصب فيه حلاقاً اختاره يقصّ له مجاناً وللناس بالأجر .

فاذا كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً وهو ميعاد ذهابه إلى مكتبه . جاء وكيله يحمل إيراد الصالون ، وهو حساب يحمل الخسارة دائماً . ولا يكاد يبلغ أجر الأسطى . ولكن مزاج الرجل الخاص يحتم عليه أن يبقى هذا الصالون لأنه يريد ذلك والسلام .

مرتعد اليد كأن بها حمّى . فهى لا تستقر من الرعدة إلا وهى محطوطة فى جيبه أو معتمدة على فخذه . وقد تبلغ غاية ارتعادها إذا مسح بها على جبينه ، وكثيراً ما يفعل ذلك إذا أخذ ينظم الشعر ، دقيق أصابعها دقة مرهفة تكاد تلحقها بأيدى الأطفال ، يختتم فى الوسطى منها بخاتم من الزبرجد الأصفر .

ويعزى هذا الارتعاد إلى إسرافه فى الخمر إبان شبابه حيث كان يتعاطى ثلاثين كأساً فى الليلة الواحدة .

كبير الرأس صلْت الجبين . وكان يسره ذلك الاتساع فى جبينه

فلا يفتأ يردده فى شعره إذا نوّه بعظيم أو أشاد بكبير . حدث أنه أبرز لى جنيهاً وقال : هو لك إذا عرّفت باللغة الفصحى : كثير شعر الجبهة . فقلت : الأغم . فقال : ذلك كثير شعر القفا . فقلت : الأفرع بالفاء . فقال : هو ذلك . وأعطانيه .

صغير القدمين صغر أقدام الأطفال .

مستقيم الأنف مرتفع الأرنبة منه . تخاله أنف أرمنى انحدر من جدود أرمن . وكان ذلك الوصف يعمّه كله من قدمه إلى رأسه .

قصير قصر يدفعه قليلا إلى جماعة الأقزام .

يعجبه طول السهر . فهو لا يأوى إلى فراشه إلا فى الثالثة من الصباح أو الرابعة ولا يستيقظ إلا فى العاشرة من الصباح أيضاً .

وكان يقول : إن هذه عادتى من الصبا حتى أن مدرسى كانوا يتغافلون عنى إذا حضرت الدرس متأخراً .

فاذا استيقظ تلقّفه خادم أسود كان له بمكانة الحاضنة من الطفل . فهو يتولىّ غسل وجهه ورأسه . ثم يديه إلى مرفقيه وقدميه حتى ركبتيه بالماء الفاتر والصابون . فاذا فرغ من ذلك ذهب به الخادم إلى غرفة أخرى حتى يعيد إلى غرفته النظام بعد أن عمّها الفوضى فى ليله. فقد كان إذا قرأ كتاباً قذف به إلى غير وجهة . وإذا استعمل أداة رمى بها إلى حيث لا يعنيه مستقرها وذلك لقلة صبره .

فاذا فرغ الخادم من تهيئة الغرفة والعود بها من الفوضى إلى النظام رجع إليها فوجد ثيابه قد أعدّت . فارتداها وخرج من داره بغير إفطار . فهو لم يفطر فى بيته قط . إنما كان إفطاره فى جروبى .

وكان إفطاره بسيطاً : قهوة باللبن وقطعة من فطير الخبز .

وكان يرجع تافه افطاره إلى قصر الوقت بين ميعادى افطاره وغدائه . فقد كان لا يتجاوز الثلاث ساعات وكان حريصاً على أن يأكل جيداً فى غدائه .

وكان مغرماً بتعدد أصناف الطعام وإن كان قليل الأكل . وكان مفتوناً بذلك فتنة تجعله يقترح على ابنته ــ وكانا متجاورين ــ أن تأتى بطعام غدائها إلى مائدته لتكثر الألوان المنثورة أمامه وينال منها مايشاء .

وأذكر أن الأستاذ الثعالبى التونسى رحمه الله نزل القاهرة وكان جوّاب آفاق فدعاه إلى مائدته .

وكان يعلم أن وطن الأستاذ تونس يجيد صنع الكسكسى فهو الأكلة الوطنية هناك .

فاقترح عليه أن يلقنها طباخه . فانصاع الثعالبى وذهب إلى المطبخ ، وجلس من الطباخ مجلس الأستاذ وأحضروا له نرجيلة تعينه على طرد الملل . ودفع بى أيضاً إلى مؤانسته .

وقام على طهو الكسكسى بنفسه . فكان يأمر الطباخ بوضع المقادير الواجبة من السكر والسمن والماء ، ويستفسره الفترة بعد الفترة قائلا : نضج نضج فيجيب الطباخ : لسه لسه .

وأنا بين ذلك أتصبب عرقاً من حر المكان ، وتكاد تخرج نفسى من ريح الأفاويه . فلا نزال فى بلاء حتى ينضج الكسكسى ، فتغد المائدة فلا يصيب من هذا الكسكسى إلا إصابة يسيرة .

وكان يحب الطعام كما قدمت . فربما سلخ الوقت الطويل يحادث جليسه عنه .

وأحبّ الأطعمة إليه : الفاصوليا الحمراء . والاسبانخ بالبيض . والبامية . والإسبرج . والكوتليت . وكفتة الحاتى . والبيض الذى كان يعتقد جازماً أنه يعيد إليه ما فقد من بناء .

وكان يعشق أكل الفاكهة عشقاً عظيما ويتخير منها الجيّد الغالى ولا يشتريها إلا من محل (لاباس) الشهير وبنفسه .

وكان على سخاء مائدته وكثرة ألوانه يكره أن يكثر موأكله من صنف اختاره هو وأوصى به طباخه .

حدث أنه دعانى إلى الغداء يوماً . وكان صنفه فى هذا اليوم (كفتة بالصلصة) وكانت متقنة الطهو . فاغترفت منها مرتين . فحدجنى بنظرة قاسية لم أفطن لمعناها حينئذ ، فلما فرغنا من الطعام خلوت بنجله على شوقى — ونحن أصدقاء وليس بيننا حشمة ولاحرج— فاستفسرت منه عن معنى نظرة أبيه التى حدجنى بها فى غير جرم أتيته . فقال : لأنك أخذت من طبقه المفضل مرتين . وهذا جرم عنده عظيم .

وكان يأمر لنا كل يوم جمعة فى الشتاء بإعداد طعام نحمله معنا إلى مقهى يشرف عليه الهرم الأكبر .

وكان يصحبنا غالباً المرحومان حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى . وكان مغرماً بهذه الجلسة من كل أسبوع . وقد اشترى لهذه الجلسة كرسياً من هذه الكراسى التى تمتهن فى شواطىء البحر . وتركه هناك حتى إذا كان يوم الجمعة استلقى عليه عقب الغداء للراحة .

وأذكر يوماً ونحن فى الطريق انه اشتهى (طرشى) فعرّجنا على

طرشجي وابتعنا منه حاجتنا فى إناء مقفل . لأنه حرص أن يكون الطرشى بمائه . فلما نصبت المائدة ووضع الطرشى بمائه فى أطباق أمامنا . انهلنا على مائه بالملاعق . وأمسك هو فعجبت . ثم سألته بعد ذلك عن سبب إمساكه فقال : إنى تقذّرت من هذه الملاعق الهاوية من الأفواه إلى الأطباق وكان يجب أن يأخذ كل منكم نصيبه فى طبق مفرد .

وأراد حافظ إبراهيم منافسته يوماً فى الطعام ، فاقترح أن يكون طعام الأسبوع القابل من بيته .

وكان حافظ مشهوراً بجودة الطعام مسرفاً فى اعداده ، وكنت أسمعه كثيراً يقول : الورق العنب والملوخية الخضرا خربوا بيتى .

فإن كثيراً من أصدقائه كانوا يلحون عليه فى دعوته لهم إلى هذين الصنفين . لأن زوج خاله — وكانت تقيم معه — تتقن هذين الصنفين إتقاناً عظيما .

فأحضر حافظ طعامه وجاء البشرى وأكلنا . فلمحت عليه شهيّة غير عادية . أفضت إلى الحديث عن الطهاة . تمنى فيه أن يجد سوداء من تلك النساء السود القدامى اللواتى يتقن هذا النوع من الطهو الذى جاء به حافظ .

ولكن سرعان ما فقد السرور بالطعام فى أسبوعنا التالى لهذه الأكلة الدسمة . فقد بدر شاب من أولاد الذوات كان صديقنا . وكان يحضر هذه الموائد وقال :

يا باشا — وكنا نطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يحمله من تركيا —

سأقوم باعداد غداء الأسبوع المقبل . فقبل راضياً . ومنى نفسه بطعام شهى مختلف جديد .

فلما كانت الجمعة جاء ابن الذوات بطعامه . وكان ديكاً رومياً أعجف سيء الطهو وأطعمة لا طعم لها ولا لون : فأكل قليلا وهو كاره

ولم يلبث أن قال لى ونحن فى العودة من المقهى إلى مكتبه — وكنت أركب معه عربته — : إن هذا الطعام أصابنى بالنورستانيا .

عهده بعبدالوهاب فى هذا المقهى :

خاض الناس فى معرفة شوقى بعبد الوهاب الموسيقار ، فقال بعضهم : إنه عرفه يوم كان يغنى صغيراً بين الفصول فى فرقة الممثل عبد الرحمن رشدى . فعطف عليه وشجعه ورعاه وتعهده .

ولكنى أقرر صادقاً أن اسم الأستاذ عبد الوهاب لم يطرق سمع شوقى إلا فى هذه المقهى الرابض تحت سفح الهرم الأكبر . الذى كنّا نرتاده كل يوم جمعة فى فصل الشتاء .

نوه به وذكره المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى . وكان عبد الوهاب حينئذ قد ظهر فى تخته يغنى للناس فى بيوتهم وعلى المسارح العامة . وكان فتى يافعاً .

وأذكر كلمات البشرى بنصّها . قال : أما يا باشا فيه جدع اسمه عبد الوهاب صوته زى الخصّ أحب أنك تسمعه .

فقال : هاته يوماً إلى البيت .

فجاء وحضر جمع قليل من أصدقاء شوقى . وغنى عبد الوهاب . ففتن به شوقى وحمله على ملازمته .

وكان يحشد له فى ليال جامعة سروات الناس ليقدمه ويرفع من شأنه . وكان ينفق على تلك الليالى نفقات طائلة . يدعو فيها ثروت باشا ويحيى ابراهيم باشا ومحمد محمود باشا . وأحمد عبد الغفار . وحسين هيكل . وابراهيم الطاهرى . ونعمان الأعسر . وحفنى محمود وغيرهم من الوزراء والكبراء . ولم يكتف بذلك . بل كان ينشىء المقـــال وينظم الشعر . ويدفعهما إلى من يحسن الإلقاء فيلقيهما على هؤلاء الكبراء فى تلك الحفلات تنويهاً بصوت عبد الوهاب وتعظيما لألحانه .

وأذكر أن عبد الوهاب مرض يوماً وكان يقطن فى حيّ باب الشعرية فحمله شوقى إلى كرمة ابن هانى فى الجيزة . وأعد له غرفة هناك ، وتعهده بالتطبيب والغذاء المناسب . وكان ابنه حسين شوقى يضيق بهذا الضيف أعظم الضيق . وكان يسألنى أن أهون عليه أمره .

فكنت أحتال لهذه الوساطة حتى أفثأ غضب هذا الثائر .

ولم يرفق شوقى بابنه . بل زاد الأمر سوءاً باصطحابه لعبد الوهاب إلى أوربا وكان معه حسين . فكان يقول : إن قبطان الباخرة سينهى هذا العداء بالقاء الاثنين فى البحر .

ولم يقف حب شوقى لعبد الوهاب عند غاية .

فقد بلغ من حبه له أنه جاهد حتى ابتاع له منزل السيدة خالة أولاده فى العباسية بقدر لا يبلغ ربع ثمن هذا المنزل .

وكان عبد الوهاب قد أصاب بعض المال من تمثيلية كليوباترا ومارك انطوان التى غنى فيها أمام السيدة منيرة المهدية .

وكان شوقى يذهب إلى منزل عبد الوهاب ظهيرة كل يوم ليوقظه من نومه — وكان نؤوم الضحى — ثم يصحبه معه إلى الغداء فى كرمة ابن هانىء .

وإذا افتقده يوماً دعاه إلى التليفون ودلله قائلا :

يا محمد يا مخمد بالخاء المعجمة .

ولم يكتف بذلك بل اشترى فداناً فى طريق الهرم وأطلق عليه اسم (عش البلبل) ولم يكن يعنى بالبلبل غير عبد الوهاب .

وكان شوقى ملولاً . ولكنه لم يمل صحبة عبد الوهاب قط رغم انه كان يصبحه ويمسيه .

فلم أسمعه يوماً يشكوه أو يعيبه أو يناله بمكروه ، حتى أنى قلت له يوماً — وقد كان قال لى : اثنان لا أستغنى عنهما أبداً مبسم سيجارتى وحسين ابنى — قلت : والآن أصبح عبد الوهاب الثالث . فابتسم ثم تجهم . فقد كان يكره أن يجابهه أحد بعاطفته .

ولم تبلغ أم كلثوم عنده منزلة عبد الوهاب . وإن كان يتعشق جمال صوتها ويقول عنها : لو سبق بها الزمن لكانت من شهيرات قينات الدولة العباسية .

وحضر يوماً قلقاً إلى مكتبه . وطلب نادى الموسيقى الشرقى بالتليفون وطلب أم كلثوم وحادثها بكلمات كلها اعتذار .

فلما انتهى من حديثه معها . التفت إلينا : أنا وولديه . وقال كنت بالأمس فى نادى الموسيقى وسلمت على الحاضرين هناك وأنسانى

الشيطان أن أحيّيها . ونُبّهت إلى ذلك بعد الأوان . فلهذا ساءنى أنى أسأت إليها غير عامد . فطلبتها واعتذرت إليها .

وأنا اوقن أعظم اليقين أن اعجابه بعبدالوهاب قد حبسه عن الانطلاق فى إعجابه بأم كلثوم كما يجب لها من شاعر كشوقى يتفهّم سحر هذا الصوت العلوىّ .

ولكنه تحيّز لعبد الوهاب ولم يشأ أن يغضبه لمكان المنافسة بين الاثنين . فقد كان إذا أحبّ شيئاً تعصّب له وبالغ فى الدفاع عنه بكل أعصابه . وقام دونه بالبذل السخى .

فقد كان منطلق الهوى لايردّه شىء عن بلوغ هواه كائناً ما كان. وإذا هفت نفسه إلى شىء اشتراه مهما بلغ سن غالى الثمن وإذا أحب إنساناً ملأ جيو به ذهبا .

وكان ينفق على ممثلى مسرحياته المال الجم فى المآدب والهدايا لأنه شغف بالتمثيل فى أخريات أيامه .

وسأتعرض لذلك عند كلامى عنه كشاعر .

وقد أراد أن يبنى مسرحاً فى قطعة أرض للسيدة زوجه فى شارع جلال لولا احتجاج أولاده ووقوفهم فى وجهه .

وأراد أن يكون رجل أعمال . وذلك للهواية لا للاستغلال ، فأقدم على شراء ثلاثمائة فدان . كان وسيطها يهودياً ماكراً استغل سوء خبرته فورّطه فى صفقة خاسرة كلفته عمارتين ضخمتين فى شارع حسن الأكبر وراء قصر الجمهورية تغل على السيدة زوجه مائتين من الجنيهات شهرياً . وذلك غير وفر محبوس طوال نفيه فى اسبانيا هو وأسرته .

خسر كل هذا لأنه هوى أن يكون رجل أعمال وتاجر أراض وفلاّح . وقد كلف مزاجه الخاص وهواه السيدة زوجه المال الكثير .
فقد كان تاجراً فاشلا ومزارعاً فاشلا ورجل أعمال فاشلا .

شوقى والخمر :

عرفته ولم يكن يشرب من الخمر إلا كأسين عقب انقلابه إلى داره فى الساعة الثانية من الصباح .

وكان خادمه يعدّ له وعاء مملوءاً بالثلج مغروس فيه زجاجات الصودا ، فكان يصبّ لنفسه كأساً من الوسكى حتى إذا شربها صب الثانية ثم يكتفى بذلك . كل هذا يجرى وهو يقرأ وينظم الشعر . وكان يحب هذه الخلوة لأنها كانت وقت اطلاعه على كتب الأدب ودواوين الشعراء .

ولم يقرأ منذ حضوره من منفاه فى اسبانيا إلا كتب اللغة العربية ولم يقرأ كتاباً أعجمياً قط فى هذه الفترة حتى موته . وقد عرفته وهو فى الخمسين من عمره .

ولقد علمت من أصدقاء شبابه أنه كان فى صباه مدمن خمر . مات كل ندمائه صرعى الخمر . ولم ينقذه من الموت إلا نفيه إلى اسبانيا حيث ذهب إلى هناك فخلت يده من المال إلا قليلا . فاضطر أن يتحوّل من الويسكى إلى البيرة . وهى هى فى ضعف السورة وهوان الكحول .

ولم يلبث أن تركها حين مُنع عنه المال من مصر إلا قليلا جداً . فقد حالت الحرب وسوء المواصلات دون أن ينفذ إليه المال نفوذاً سهلا ميسّراً .

كان يشرب فى شبابه – فيما يقولون – ثلاثين كأساً من الويسكى كل ليلة.

وكان لا يعفى نفسه من الشراب حتى لو أفرغ ما فى بطنه . بل قيل انه كان يعود إلى الشراب بعد أن يحتسى فنجاناً من القهوة لتطمئن نفسه التى غثت . فإذا ما اطمأنت عاد إلى شرابه ثانية .

كنت أشرت إلى ندمائه فى شبابه وأنهم ماتوا كلهم صرعى الخمر ، وكان من هؤلاء الأستاذ الكبير عمر لطفى المحامى وقد رثاه فقال :

قفوا بالقبور نسائل عمر   متى كانت الأرض مثوى القمر

وقد ذكر السهر مع هذا النديم والسمر فقال :

سهرنا قبيل الردى ساعة   وما دار ذكر الردى فى السمر
فقام إلى حفرة هيئت   وقمت إلى مثلها تحتفر
مددت إليك يداً للوداع   ومد يداً للقاء القدر
ولو أن لى علم ما فى غد   خبأتك فى مقلتى من حذر

وكان هذا الصديق أثيراً عند شوقى فقد أعاد رثاءه ثانية فقال :

اليوم أصعد دون قبرك منبرا ،   وأقلد الدنيا رثاءك جوهرا

ومن ندمائه الذين صرعتهم الخمر : عبد الحى حلمى المغنى وقد رثاه فقال :

طُوِى البساط وجفت الأقداح   وغدت عواطل بعدك الأفراح
وانفض ناد بالشام وسامر   فى مصر أنت هزاره الصداح
وتقوضت للفن أطول سرحة   يغدى إلى أفيائها ويراح
والله لا أدرى وأنت وحيده   أعليك يبكى أم عليه يناح
اسحاق مات فلاصبوح ومعبد   أودى فليس مع الغبوق فلاح

ولم يترك الرثاء حتى عرّج على الخمر فقال :

كان الندامى إن شدوت وعاقروا ‏ ‏ سيان صوتك بينهم والراح

وكان من ندمائه حسن رضا المحامى وقد صرعته الخمر أيضاً . وكان صديقه وصفيّه ولكنه لم يرثه لأنه مات وهما متخاصمان .

وسأعرض لهذا عند الحديث عن أخلاقه .

وكان رجوعه إلى بيته عند الشروق أو قبيله بقليل .

وكان هذا الرجل مجدوداً موفقاً فى زواجه .

لم تعنّفه السيدة زوجه يوماً ولم تغضب من هذا العبث الصارخ . فقد كان والدها حسين باشا شاهين أحسن تأديبها وقد رزقت نفساً كريمة لقنتها الطاعة والامتثال لزوجها .

فلم تشك شوقى إلى أبيها يوماً وهو رجل ثرىّ ثراء ضخماً . وشوقى فقير لا يملك إلا راتبه الذى يدّره عليه الديوان الخديوى .

وكانت حاناته المفضّلة : حانة المحروسة . وكان موقعها يحاذى محل شيكوريل فى شارع فؤاد ، وحانة سان جيمس . وقد احتلت مكانها عمارة الكرنك لعبد الوهاب فى شارع فؤاد أيضاً . ثم حانة دلبانى على شاطىء النيل مكان حديقة الأندلس .

وكان الخديو عباس يعلم عن شاعره حبّه للخمر ، فكان يطلق عليه : (أبو قارورة) والقارورة : الزجاجة .

وفى اليقين القاطع : أن شوقى لم يختر اسم كرمة ابن هانى المحفور على قطعة من رخام مسنودة إلى باب داره فى الجيزة إلا لولعه بالخمر

وذلك لغرام أبى نواس بها واستهتاره فيها . وذلك متعالم مشهور عند أدباء العربية أن ابن هانى : أبا نواس كان شاعر الخمر الأول .

ولم يكن أبو نواس شاعر شوقى المفضل وإنما كان ذلك المتنبى وسأذكر ذلك عند الحديث عن شعره .

وحدثنى أصحاب شبابه أنه ربما رهن ساعته لدى الخمّار وفاء لثمن شرابه . وكان ذلك قبل أن تقبل عليه الدنيا .

فهو فى ذلك قريب للشاعر الفرنسى الفريد دى موسيه . ولكثير من ظرفاء شعراء العرب الذين كانوا يخرجون من أثوابهم للخمارين ويقدمونها أثماناً لشرابهم بعد إفلاسهم فى صخب الحانة بين الصحب والندماء .

ولعه بالتجوال :

كان مولعاً بالتجوال فى الأحياء النائية الشعبية فى القاهرة والاسكندرية وانى أتحدى أى إنسان عرف مقر شوقى أو مضطربه ما بين الساعة السادسة والثامنة مساء كل ليلة . فقد كان هذا سر الأسرار وخافية الخافيات .

وأذكر أن المرحوم اسعاف النشاشيبى الأديب الفلسطينى كان صديق شوقى وأكبر دعاته فى العالم العربى . وكان شوقى يقربه ويستظرفه ويحبه . فكان إذا جاء مصر من فلسطين لازمه ملازمة تكاد تكون تامة .

ولكنه كان يتحايل فى الانفلات منه بكل حيلة بين هاتين الساعتين اللتين يتجول فيهما فى أكناف القاهرة .

حضر معه يوماً إلى مكتب دائرته . وكانت الساعة الخامسة والنصف فلم يبق إلا نصف ساعة على انطلاقه إلى ساعتيه .

فنظر فوجد الرجل مصراً على ملازمته حريصاً عليها . وكانت بينهما حشمة ويكره أن يعتذر إليه بعذر .

ولكنها العادة — وكان عبد العادة — أبت عليه إلا أن يلجأ إلى حيلة طريفة . كان يعلم حب اسعاف للخمر وإدمانه عليها فقال :

اسعاف بك ، محفوظ يعرف حانة تسقى خمراً جيدة معتقة فأنصحك أن تذهب معه إليها ثم نتقابل بعد ذلك فى (صولت) — وهو مكان فى شارع فؤاد احتله شيكوريل الآن — الساعة التاسعة .

ولم يكن هناك حرج على اسعاف بك أن يشرب فى أى وقت من النهار أو الليل . فهو يواصل شرابه ويلحق صبوحه بغبوقه .

والعجيب انى لم أعرف من الحانات إلا مايعرفه اسعاف بك . اللهم إلا تلك التى تسقى الخمر الرديئة التى لا تليق برجل غنى كاسعاف النشاشيبى .

ولكن لا مفر من إحراجى حيث أن هذا سيعفيه فى زعمه من صحبة اسعاف لينطلق إلى ساعتيه المعلومتين .

ولكن سوء حظه ونكد طالعه كانا قد صاحبا أسعاف بك فى الظهيرة فشرب من الخمر قدراً كبيراً منعه أن يصاحب ثقيلا مثلى إلى شرب مزيد من الخمر فى الساعة السادسة من المساء .

فأجاب : لا يا سيدى أنا باق معك ولا حاجة لى فى صحبة حضرته

ولا إلى خمره المعتقة . فتجهم شوقى وخابت حيلته وانتكث غزله ، ولم يبق فى طوقه الهرب . فمكث معه مقهوراً، ولم أره فى يوم ضيق الصدر حزيناً مثل هذا اليوم .

ومن عاداته :

ومن عاداته أنه إذا ركب الترام ركبه فى المقعد الخلفى من العربة المقطورة . وكان ينصت لحديث السوقة من الركاب .

دفعتنى الصدفة يوماً فركبت الترام فكان وثوبى إليه فى المقعد الخلفى ، وكان هناك اثنان من الأوشاب يتحدثان . وكان يجاورهما . فلما بصرت به حييته . ولقبته بالباشا فعبس وتولى ورد تحيتى رداً فاتراً .

فلما نزلنا وكانت وجهتنا محل صولت عاتبنى غاضباً . وقال : يا أخى : أنا أردت أن أتعلم كلمة واحدة أو أستفيد حديثاً من هذين السوقيين . فلما لقبتنى بالباشا احترسا فى حديثهما ثم لزما الصمت كما رأيت .

فابتسمت واعتذرت وكنت أعلم شطحاته وعجائب خياله .

من مألوفه أن يختلف إلى السينما بعد العشاء الذى كان يتناوله دائماً خارج منزله كافطاره سواء بسواء ، وكان يتناوله عادة بين مطاعم الحاتى وصولت وسان جيمس وباريزيانا ومطعم فول .

وكنت تراه دائماً فى الصفوف الأولى من مقاعد السينما ، وذلك لقصر نظره الذى قصرته السن وعبث الشباب .

وكان شغوفاً بالسينما شغفاً عظيما تركه يتابع الحلقات الأسبوعية التى كانت تحرص على عرضها السينما منذ ثلاثين عاماً عرضاً مبتور الصورة لإمساك الجمهور والتأكد من رجوعهم إليها أسبوعياً حتى يشهدوا النهاية التى تورطوا فى أولها . وكنت تراه يناقش ويجادل ويستنبط ويتعجل حل ألغاز الخاتمة لتلك الحلقات التى تحرص على الغموض لاستهواء النظارة والمسك بهم إلى النهاية كما قلت .

وكان يرعبنى منه شربه قدحاً ضخماً من القهوة قبل نومه .

ولعله هو الفريد فى زمرة مرضى الأعصاب فى تلك العادة . فلم أر إنساناً فى مثل حاله من اختلال الأعصاب جرؤ فشرب قدحاً من القهوة بعد الغروب إلا واعتراه أرق ممض حال بين جفنيه والنوم .

كان يصاحب من لا يلائمه :

لقد كان هذا الشاعر العظيم الغواص فى خفايا النفوس البشرية تراه أحياناً كثيرة جالساً مع طائفة من أولاد الذوات فى جروبى . وبينهم المرحوم عزيز عثمان صديق هذه الطائفة ورائدهم وهو يخوض معهم فى التافه من النقاش . وكان وهو بينهم كأنه أحد أبناء الاقطاعيين العاطلين من كل شىء إلا من المال والحسب والرفاهة والتفاخر بالآباء والثراء .

وكان يقدمهم لجلسائه والوافدين عليه من السادة العلماء وكبار الأدباء منوهاً بآبائهم وكريم عروقهم وأصولهم .

والظاهر أن تلك العادة فى صحبة هؤلاء غلبت عليه ورسبت فى

نفسه أيام خدمته الطويلة فى القصر الخديو ، الذى كان لا يعرف لأحد مكانة إلا لهؤلاء الكسالى المحدودين .

وربما انتقل من هذا المجلس التافه إلى آخر ضم كبار أهل السياسة والرأى والصحافة والعلم فجالسهم وحاورهم فى منتوج عقولهم وجلائل أبحاثهم . وكان يختار من هؤلاء آحاداً عرفوا بانحراف فى التفكير جعلهم عجائب زمانهم فاختصهم بأكثر وقته وطاولهم السهر حباً منه فى مجالسهم والتمتع بهم .

ومن عجيب هذا الشاعر العظيم أنه قل ما يذكر الشعر فى مجالسه وإن كان جليسه شاعراً أو أديباً .

فطالما جلس مع حافظ إبراهيم وخليل مطران وأحمد نسيم وغيرهم من كبار الشعراء وصغارهم وكنت أجلس معهم .

فلم يكن يدور فى هذا المجلس إلا حديث الطعام أو السياسة أو الأحزاب أو غير ذلك من شئون الدنيا . ولم يكن لذكر الشعر إلا نصيب قليل جداً فى تلك الجلسات . وكان هو العلة فى ذلك . لأن هؤلاء كانوا يعرفون تبرمه بهذا الحديث فكانوا لا يطرقونه على شغفهم به فى مجالسهم الخاصة التى كنت أحضرها بدونه .

وكان يستظرف أن يبدأ حديثاً مثيراً فى السياسة بين جلسائه . حتى اذا اشترك فى هذا الحديث مختلفان فيه، أذكى ناره . ثم ترك هذين المختلفين فى حوار عاصف وهو يبتسم . فاذا ذكت النار وعلا لهيبها وأنذرت بسوء العاقبة انتشل ساقه من تحت فخـــذه اليسرى

— وكانت هذه هيئة جلسته — ثم ولى تاركاً الفارسين وهما على وشك المبارزة بالألسن والأيدى .

ومن عادته أن يرتاد أمكنة فى يومه لا بد له من ارتيادها وهى جروبى وليبتون وجريدة الأهرام . وصولت وبعكوكة (١) وحيد الأيوبى وقهوة الشيشة (٢) وبعض أمكنة فى مصر الجديدة .

وفى الصيف بالاسكندرية كنت تراه بالتريانون وفى جروبى (٣) بشارع شريف ، وذلك عصر كل يوم فى الساعة الخامسة مساء .

وكان يختار هذا المكان لقراءة صحف المساء .

وكان يفضل مطعم جوانيدس دائماً لتناول عشائه .

وكان تجواله فى طريق الجمرك ، ومحرم بك .

وكان يحب الاسكندرية ويغرم بالبحر الأبيض غراماً عظيما .

وله فيهما قصائد رائعة . فمما قاله فى الاسكندرية :

اسكندرية يا عروس المـــاء	وخميلة الحكماء والشـــعراء
نشأت بشاطئك الفنون جميلة	وترعرعت بسمائك الزهراء
جاءتك كالطير الكريم غرائباً	فجمعتها كالربوة الغنـــاء
قد جملوك فصرت زنبقة الثرى	للوافـــدين ودرة الدأماء
غرسوا رباك على خمائل بابل	وبنوا قصورك فى سنا الحمراء
واستحدثوا طرقاً منورة الهدى	كسبيل موسى فى فجاج الماء

(١) مقهى : كان يقع أمام حديقة الأزبكية .
(٢) « كان يقع « «
(٣) مكانه : محل حلوانى الآن .

فخذى كأمس من الثقافة زينة | وتجملى بشـبابك النجباء
وتقلدى لغة الكتاب فإنها | حجر البناء وعدة الانشاء
بنت الحضارة مرتين ومهدت | للملك فى بغـداد والفيحاء
وسمت بقرطبة ومصر فحلتا | بين الممالك ذروة العليـاء

وسأتعرض لذكره البحر الأبيض عند الكلام على شعره .

وقد أقام له بيتاً هناك فى محطة الإبراهيمية وسماه بالزاهى. وكان يحرص على أن يسلخ فيه الصيف كله . ويختلف إليه فى بعض أيام من الشتاء .

وكان يدخن سجاير ديمترينو الرفيعة . يدخنها فى مبسم ذى انبوب يغسل دائماً بالكحول . وله عدة مباسم . يأمر بتنظيفها دائماً خشية الميكروب لأنه كان يخاف المرض . ويجزع منه جزعاً مخيفاً، وكانت به لوثة من الخوف من العدوى. فما صافحه إنسان إلا وكانت له فى هذا الشأن حماقات تخجل .

حدث أنى زرت نجله وكان أصيب فى حادثة سيارة وهو صديقى. وقد علمت بنبأ الحادث منه فى عصر يومه .

فذهبت فى صحبته إلى كرمة ابن هانىء . فلما صعدنا إلى غرفة الجريح ،استوقفنى على بابها . وأمر بزجاجة من الكلونيا . فلما جىء بها صبها كلها على رأسى وثيابى . فاحتججت غاضباً وقلت :

يا باشا أنا لست قذراً ولا حامل عدوى . فضحك قائلا : هذا شأنى مع كل من يزور مريضاً عندى . فقلت : هذا يكلفك كثيراً

وينفر عواد مرضاك . قال : لا يهم ما دمت أستريح إلى إرضاء هواجسى فى دفع العدوى .

تفاؤله وتشاؤمه :

وكان يستبشر خيراً منك إذا سمع ثناء على صحته . وكنت أعلم عنه هذا . فكنت إذا عدته مريضاً فى داره . أو سمعته يشكو وجعاً فى مكتبه أسرعت قائلا : والله ان وجهك ينبيء عن صحة وشباب . فكان يطير فرحاً ويلتفت إلى ولديه ويقول : أما فيكما من يقول لى مثل هذا ، ويسر بقية يومه .

وكان إذا أخطأ جاهل . وضل أحمق وصدقه القول فى شحوب وجهه وأثر علته . فالويل له وعليه اللعنة .

حدث أن قريباً لولده عاده يوماً فى داره وكان مريضاً ملازماً للفراش . وكان الفتى غراً لا يعرف أدب الحديث ولا أدب عيادة المرضى .

فلما دلف إليه فى سريره صاح فى لهفة — وكان جهورى الصوت مسكين يا عمى سلامتك !

فما كاد يسمع هذا الصائح ، ويلمح سواده المقبل حتى أخذته رعدة وانتفض من الغضب وصاح فيه :

اخرج اخرج أناعمك من أين . يا الله بره . يا حمار . وكرر هذا مراراً .

وكان هذا العائد ليس بالطفل . لقد كان موظفاً بالحكومة فى

مكانة مرموقة . ولكنه كان لا يعرف أدب الحديث كما قلت .

وكنت إذا فاجأته بتحية أو بدأته بحديث وهو غافل عنك مستغرق فى خياله . انذعر واضطرب كأنه طفل صغير هجم عليه فى الظلام جن مارد تقدح عيناه ناراً وينفث فمه دخاناً .

لقيته مرة أمام دار للسينما . وكان غافلا عنى بقراءة إعلان الرواية المنصوب فى الحائط ، فباغته بالتحية . وكانت تحية عنيفة لذتنى إليها نشوة خفيفة أحدثتها زجاجتان من البيرة .

فما كاد يسمعها حتى ارتعب وخاف وزجرنى قائلا :

إيه يا أخى ده أنا ظننتك فوضوياً قاتلا يريد بى شراً .

فقلت : وهل القاتل يحيى مقتوله قبل القتل ، فتشاءم وتركنى وانسل هارباً .

وكان يحب الحياة حباً عظيما ويخاف الموت خوفاً شديداً . ويكره أن يتحدث عنه كما كان يكره غيره أن يتحدث عنه أمامه .

فكنا نعلم عنه هذا فنتحاشى ذكره أمامه . فلا ننعى ميتاً ولانخوض فى حديث الموت ولا فلسفته ، ولا فى أية ناحية من نواحيه كائنة ما كانت .

ويستطيع قارىء شعره أن يتبين هذا فى حيرته الدائرة فى الخوف من الموت فى كل مراثيه .

وكان يتعاطى الدواء حتى لو لم يكن مريضاً ، كان يتعاطاه فى أقراص وسائلا متوهماً أن هذا عدة لدفع المرض .

وكنت إذا جلست معه على المائدة وجدت زجاجة اليود موضوعة وجارتها كوبة فارغة . فاذا جاء إلى منتصف طعامه أفرغ قليلامن الماء ومزجه بخمس نقط من اليود وشرب ذلك جميعاً ، ثم شرب سيجارة وادعى أن فى هذا تطهيراً للحلق من الميكروب الذى ربما يعلق ببعض طعامه أثناء تناوله . ثم استأنف بعد ذلك طعامه .

وحدث مرة أنه كان فى غرفته الخاصة التى كانت تشبه صيدلية لكثرة الأدوية المنثورة فوق رفوف مسندة إلى الحوائط .

وكان معه كاتبه يملى عليه أبياتاً من شعره ، فاحتاج إلى دواء فى لون الماء ليشربه . فأهاب بكاتبه أن يحضره له . فغلط الكاتب وأحضر زجاجة البوريك ، فما كاد يعب منها قليلا حتى أحس بالبوريك . فتفله مرتاعاً . وصاح بالكاتب مهدداً متوعداً . وقد بان عليه هول الموت .

فما كان من الكاتب المسكين إلا أن عمد إلى الزجاجة فأفرغها كلها فى جوفه رعباً منه ليموتا جميعاً فى زعمه . فصاح فيه (وأنا أستفيد إيه من موتك معايا) وأسرع إلى التليفون ودعا طبيبه الخاص . فحضر الرجل مسرعاً. فلما علم منه الأمر هونه عليه وقال ، ان البوريك مطهر ولا ضرر منه . فاطمأن واعتذر لكاتبه على ما أدخله فى قلبه من رعب

لبسه شتاء وصيفاً :

كان يحب لبس الصوف شتاء وصيفاً . يلبسه خفيفاً فى الصيف

ثقيلا فى الشتاء . ولم يعرف البيجاما فى لباسـه قط . إنما كان لبسه فى المنزل جلباباً من الصوف . حتى إذا كان الشتاء ارتدى رداء ثقيلا فوقه (روب) .

وكان يتنقل فى سيره فى منزله بالجورب لم يتركه قط فى نوم ولا فى يقظة .

وحذاؤه مكشوف العنق فى الصيف وفى الشتاء . يلبس فوقه (جتر) من الجوخ السميك .

وله معطفان أحدهما خفيف لأيام الصيف . والثانى ثقيل سميك لأيام الشتاء .

يخاف البرد خوفاً قاتلا . وذلك لنحوله البادى وتقدمه فى السن . وكان يخاف هواء الخريف أيضاً ويتقيه .

جلست معه مرة فى كرمته بالمطرية وذلك قبل انتقاله إلى الجيزة . وكنا فى منتصف اكتوبر وكنا نجلس فى الحديقة .

فهبت علينا رياح الخريف فى بواكيرها . فهب واقفاً وقال :

هيا إلى الداخل . فقلت : إن الطقس جميل . والنسيم منعش فعلام الاكتنان فى الداخل .

فنظر إلى مغضباً وقال : الطقس لطيف عندك لأنك ضخم تستطيع الاحتمال أما أنا فنحيل . ولم يذكر أنه كبير السن أو أنه شيخ . فقد كان يتجنب ذلك فى أحاديثه مع الناس، وغالب الظن مع نفسه أيضاً .

وقال : وعلى كل حال إن كان الجو لطيفاً فمن اللطيف يخاف

فانصعت له . ودلفنا إلى صالون مغلق النوافذ واحتمى فيه .

كان له طبيب خاص :

ومن خوفه على صحته وخشية الموت ، اتخذ طبيباً خاصاً . كان نمسوياً وكان منفياً معه فى اسبانيا . فلما رجع من منفاه جاء هذا الطبيب إلى مصر . وكان فيها من قبل يعمل مديراً للمستشفى النمساوى بالقاهرة ولم يكن يعرف شوقى يومئذ . ولكنهما التقيا فى برشلونة حيث كانا معاً . فلما رجعا كان طبيبه الخاص .

ولم يكن طبيبه فقط ، بل كان طبيب الأسرة وصديقها ؛ بل قل: طبيب أصدقاء شوقى ومعارفه أيضاً .

فقد كان ظريفاً مرحاً اتخذناه جميعاً صديقاً وطبيباً لنا ولعائلاتنا بلا مقابل ولا أجر إلا صداقتنا لشوقى . واتخذنا عيادته للعب الورق وللسمر .

فكان إذا انصرف المرضى ، ذهبنا إليه ولم يكن شوقى معنا لأنه كان لا يلعب الورق . ولا يطيق أن يلازم مائدة اللعب هذا اللزوم الطويل الذى تحتمه موائد لعب الورق .

بل انه لم يلعب الورق فى حياته . ولم يعرف عنه حتى لعبة البصرة.

وكان هذا الطبيب الكريم كثيراً ما يهيىء لنا مآدب زاخرة بالطعام والشراب وكان يحضر بعضها شوقى . ولكنه سرعان ما يعتذر بعد العشاء وينصرف ويتركنا لصخب الشراب وعربدته .

وكان طبيبنا مسيحى النشأة . وبلغ الخمسين من سنه وهو مسيحياً . ولكن صداقته لشوقى وحبه له . وإعجابه بالشرق ومصر ومكثه الطويل فيهما . مال بقلبه إلى الإسلام ، ولكنه لم يظهر ذلك . حتى كان هذا الحادث ؟

ظلت تختلف إلى عيادته سيدة يونانية للعلاج . وكانت امرأة داهية فى النساء . وكان الطبيب قد فات الخمسين عاماً . ولم يكن حسن الوجه . وكان فيه سذاجة فكانت هذه المرأة اللعوب الماكرة تظهر للطبيب الشيخ حبها وهيامها وهى تضمر له الطمع فى ثرائه لأنه كان ثرياً .

وانخدع الشيخ وظن أنه (دون جوان) . فأحكمت المرأة حبائلها حتى اقتنصته بخاتم الخطبة .

ومرت الأيام . وفطن الطبيب لطمع المرأة فندم على خطبتها فاكتنفته الهموم . وأكب على الشراب ليسرى همه .

وكنا صديقين . فاقترحت عليه أن يسلم ليفلت من المرأة ويصبح فى حل من خطبتها لأنها ستأبى أن تتزوجه مسلماً . فقبل مشورتى وأعلن إسلامه . ونجا من هذا البلاء .

وأردت أن أتحقق من عقيدته فسألته : هل أسلمت عن عقيدة يا دكتور أم هرباً من العروس — وكان يطلق على خطيبته كلمة العروس فقال : بل عن عقيدة . وقص على قصته قال :

كنت أسير الإنجليز فى حرب سنة ١٩١٤ وقد وضعونى فى غرفة

مظلمة لا ترى الضوء أبداً . فأخذت أبتهل إلى المسيح أن يفرج كربتى. ناذراً نفسى له بأن أكون قسيساً شكراً وتقرباً .

فلما طال الابتهال وطال الحبس وطال البلاء وعز الفرج. تحولت إلى محمد ودعوته أن ينقذنى على أن أكون مسلماً . فتحقق الرجاء وأفرج عنى بعد قليل من استغاثتى به . فوقر فى نفسى هذا . حتى نزلت مصيبة هذه المرأة ونبهتنى أنت إلى الخلاص منها بالإسلام . فتذكرت وعدى لمحمد فأسلمت عن يقين .

وكان شوقى لا يغب طبيبه هذا . كان يزوره صباحاً ومساء فى عيادته ليطمئنه على صحته التى كان يعشقها عشقاً لا يعرف غاية . رحم الله المريض والطبيب فقد نعمت بصداقتهما عهداً سعيداً .



أخلاقه

اننا نحار حين نتعرض لمدلول كلمة الأخلاق . فهى كلمة لا تحد بحدود ولا توزن بميزان . ولا يصح عليها تعريف قائم المعالم مضبوط الحساب . فهى عند قوم إحسان لشيء هو عند الآخرين إساءة وذنب.

وهى كذلك عند الأمم . فقد تمتدح بعض الأمم خصالا . يراها بعض آخر ذماً وقبحاً .

فى الشرق أخلاق يعجب بها الشرق ويراها خلالا سامية، بينما يراها الغرب جهلا وتأخراً .

وقدتكون بعض الأخلاق ذميمة عند ملة من الملل . بينا هى عبادة وتقرب عند ملة أخرى .

وكذلك عند الأفراد . فقد أثنى جماعة على شارب الخمر وعدوا فعله هذا من الفتوة والكرم .

وتاريخ الأدب العربى يزخر بالثناء على شارب الخمر فى الشعر والنثر . وهو فى الدين وعند المحافظين فسق وخروج عن جادةالأخلاق الكريمة .

كذلك زير النساء . قد حظى بالتشجيع الكثير والإعجاب البالغ فى الآداب العربية أيضاً . وعندكثير من الناس .

حتى اللصوصية والسطو . صيغت لها الأفلام السينمائية وأظهرت نجومها أبطالا مغاوير .

ولم تخل نقيصة فى الأرض من مؤيدين ومعجبين .

وقد عفا النبي صلوات الله عليه عن كثير من الجرائم الخلقية . فهو عالم بضعف الإنسان وتهافت تركيبه الجثماني والعاطفي .

فقد أساء إليه عبد الله بن أبي بن سلول إساءة كبرى ، فقد كان يحرض عليه قومه من الأنصار ويعيبه عندهم ويأمر بنفيه من المدينة هو وأصحابه .

وكان النبي يحلم عليه ويعفو عنه عالماً أنه رجل موتور . فقد كان مقدراً له قبل الهجرة وقبل الإسلام أن يكون ملكاً على قومه . فلما جاء الإسلام وجاءت الهجرة بطل هذا التتويج . لأن الإسلام لا يعرف الملكية ولا يعرف التيجان .

وكذلك خلفاء الإسلام من بعده كانوا يتجاوزون عن كثير من الجرائم الأخلاقية . وقد قال معاوية : الكرم : التغافل .

وكثير من القادة شتموا في وجوههم من كثير من الخارجين على سلطانهم ومع ذلك عفوا عنهم .

وقد قال لمبروزو : ان المجرم غير مسئول عن جرائمه ، إنما المجتمع هو المسئول .

وذكر فرويد : ان الرواسب في قرارة النفس البشرية من لدن الطفولة هي المسئولة عن طبائع البشر وأخلاقهم .

وهنا حادثة ذكرها الأستاذ العالم النفساني محمد فتحي تظهر تأثير العقل الباطن في الأخلاق .

قال :

كنت قاضياً فجاءنى شاب قتل جاره من غير ذنب ظاهر أو ثأر مبيت أو منفعة عاجلة أو آجلة .

فأخذت أتفحص وأستنتج حتى وضح لى أن المقتول كان يضرب زوجه ضرباً موجعاً على مرأى من القاتل . وكان هذا القاتل يشهد فى طفولته مثل هذا المشهد بين أبيه وأمه . وكان عاجزاً عن الثأر لأمه . عاجزاً أن يحجز أبيه ويكفه عنها .

فلما اشتد وقوى وأدرك الشباب . وصار يستطيع أن يكف الأذى . أبصر هذا المشهد يتكرر أمامه لا بين أبيه وأمه ولكن بين شبيهين . فطفت رواسب نفسه . وعادت المأساة أمامه حية ، وتمثل الضارب أباه والمضروبة أمه ، فثاروعاونه شبابه على الانتقام . فقتل أباه فى الرجل الضارب ونصر أمه فى المرأة المضروبة .

وحيث انا عرضنا لبعض عوامل الأخلاق فى الأفراد والأمم . وقيمها المختلفة بين الناس وموازينها المتباينة .

فسنعرض الآن لأخلاق عظماء الرجال الذين لا يشك منصف فى أن شوقى منهم بل هو فى الطليعة .

وقد تفرد معظم هؤلاءبأخلاق يعدها الدهماء عيوباً وآثاماً ، ولكن هل لنا نحن الذين نستمتع بنتاج عقول هؤلاء أن نستنكر ولا نغفر لهؤلاء عيوبهم التى يعدها المجتمع عيوباً مرذولة .

أوليس من حق هؤلاء الذين أطربوا الدنيا وأسعدوها أن نقف إلى جانبهم متغاضين عن ضعفهم الخلقى .

وهل نستطيع أن نقدر خسارة الدنيا ، وهل نستطيع أن نعوض الفلسفة والأدب والشعر وهدى الناس إلى الحرية . لو سلك فولتير مسلك عرفان الجميل لفردريك الأكبر ولم يفضحه فى الناس . ولم يبع اللبن والشمع ويؤجر ملابس الحوذية ويسرق أثمان الأثواب الجدد التى أمر له بها فردريك ، ويقابل كل إحسانه بالإساءة .

هل نستطيع أن نعوض الأدب أو الفلسفة ، لو سلك فولتير هذا المسلك النبيل فى عرف الأخلاق العامة . وكان من الدهماء ولم يكن فولتير العظيم الذى بذر بذور الثورة الفرنسية . ورفع الآداب والفنون إلى القمة .

وما الذى أصاب الإنسانية من ضرر فى اعترافات جان جاك روسو . بل قل إنها أفادتها أدباً جديداً رائعاً وفناً جميلا أخاذاً .

وان الكاتب العظيم سهلت له طيبة قلبه وسذاجة نفسه كشف دخائله للناس . ولم يأخذه حب التظاهر بالفضيلة والظهور بمظاهر النفاق الاجتماعى . فيدعى لنفسه أخلاقاً تعجب العيابين وتؤذى الحقيقة .

وقد ذهبت عيوب روسو كلها ، التى لم تضر أحداً وبقى أدبه خالداً لا يزول .

وحتى بيرون الشاعر الإنجليزى الرقيق الثائر الشهوة ، وجد فى حبه لأخته واتخاذها خليلة إغضاء من قومه ، برز فى التنويه به والإشادة بعبقريته ، ولم يرجمه الشعب الإنجليزى بالحجارة . بل شفع له أدبه الرفيع

فى الإبقاء على حبه والإعجاب به . ولو فعل إنسان غيره هذه الفعلة لما وجد من الحكومة إلا السجن . ولما وجد من الجمهور إلا اللعنة المدوية والازدراء البالغ .

وان الخلود لم يزعزع أبا نواس قيد شعرة عن مكانته العظمى فى الشعر العربى لأنه كان سكيراً وعاشق غلمان .

لم ينظر هذا الجاحظ يوم قال يصفه : لم أر قروياً يفرى فريه بعد بشار . ولم يمنعه ذلك من أن يهتف بأبياته الشهيرة الحلوة التى يقول فى أولها :

ودارِ ندامى عطّلوها وأدلجوا بهـا أثرٌ منهم جديد ودارس

ولم يمنع هذا أيضاً كبار كتابنا فى هذا العصر من أن يؤلفوا فيه البحوث القيمة . ولم يمنع أيضاً الجلة من أدبائنا من نقد هذه البحوث والمساجلة فيها بالفصول الممتعة .

وأى خطر لكتاب الأغانى لأبى الفرج ونفاسة لو خلا من سير بشار . ومطيع بن إياس . وحمّاد عجرد . وحماد الراوية . وأبان بن عبد الحميد اللاحقى . وأبى دُلامة . وحمزة بن بيض . وغيرهم وغيرهم من الفحول المتهمين بالزندقة والشراب والفسق .

إن أبا الفرج لم يتحرج من هذه الأخلاق عندما أخذ يشيد بذكر هؤلاء ويقدمهم رافعاً من أقدارهم وأخطارهم . حتى سيف الدولة الأمير الكبير لم يتحرج عندما كافأه على ذكر هؤلاء بخمسين ألف دينار وهل عاقت أبا العلاء المعرى أخلاق المتنبى فى تقلبه فى البلاد

وقلة وفائه لأحد حتى سيف الدولة الذى أغناه وأعلاه واتخذه عنده وجليساً . هل عاقت كل هذه النقائص أبا العلاء وهو المتفرد بالعزلة والمتزمت فى الأخلاق من أن يشيد بالمتنبى فى كتاب وضعه فيه وسماه « معجز أحمد » .

وما فعل فحش ابن الرومى وقذارة هجائه للناس به .

لم يقعد به الفحش ولا قذارة الهجاء عن الإعجاب بفنه والخلود لاسمه . بل إن الناس أعجبت بهذا الهجاء التصويرى أعظم الإعجاب .
ولا يحسب القارىء أنى قد أزجيت هذه التقدمة لأن شوقى يحمل كل عيوب هؤلاء أو بعضها .

كلا فانى لم أعن هذا مطلقاً . ولكنى أردت أن أهون بعض عيوبه الأخلاقية التى يراها الشرق المتزمت عيوباً . ولا تراها العبقرية إلا شروداً لم يخل منه عبقرى قبله . ولن يخلو منه عبقرى بعده .

بل نقول : ان الغالبية الغالبة فى الشرق العربى تشترك مع شوقى فى كثير من هذا الذى عرضنا له .

فأى سياسى فى الشرق العربى لم يتقلب فى حياته السياسية ويهجر حزباً إلى آخر . أو يصادق زعيما للانتفاع السياسى أو المادى . حتى إذا تخلت الدنيا عن هذا الزعيم هجره أصحابه إلى غيره دنياه مقبلة .

شوقى والخديوى بعد عزله :

كان شوقى شاعر الخديو عباس حلمى الثانى وصفيه ورسوله إلى راغبى حمل الألقاب الفخمة .

ولا شك أنه كان أيضاً غرس نعمته ونعمة أبيه .

ولكن الخوف من سوء المصير جعله يتنكر لمولاه . فقد نفض يده منه فى منفاه فى اسبانيا . وبعد رجوعه من المنفى لم أسمعه قط يذكره بخير رغم وثوقه من اخلاصى له . وأنى لن أستطيع أن أكون واشياً به عند السراى .

وقد يعذر شوقى إذا أمسك عن الجهر بذكر الخديو . وقد يعذر أيضاً إذا امتدح فؤاداً وفاروقاً . وذلك لمصلحته ومصلحة أولاده خوفاً من بطش الملك فؤاد .

ولكنه لا يعذر أبداً فى إغفال فضل عباس الثانى عليه وهو جالس فى خاصته وبين من لم ينم عليه .

حتى أنه لما أراد طبع ديوانه نحى كل ما يتصل بعباس و بتوفيق عنه . ولم تظهر هذه المدائح إلا فى السفر الرابع من الديوان وقد نشرها بعد موته أولاده .

وفى هذا الشعر الذى نبذه فى حياته جمال فنى وتاريخ خليقان بالتسجيل .

ولا أكذب الوفاء إذا قلت إن شوقى قد ذكر الخديو فى استقباله لأمه أم المحسنين عند رجوعها من الآستانة عقب الحرب الأولى قال :

ارفعى الستر وحيّ بالجبين   إنه من نور رب العالمين

ولم ينس أيضاً رثاءها قائلا :

أخذت نعشك مصرٌ باليمين وحوته من يد الروح الأمين

ولم تعوزه بعض الشجاعة حين تعرض للبوليس المدفوع من السراى لتفريق المرحبين بأم المحسنين فقال :

برىء الرفق من السيف الذى منع الأمّ سلاقاة البنين

ولم تعوزه بعض الشجاعة أيضاً حين قال فى رثائها :

اخلعى الألقاب إلا لقباً عبقرياً هو أمّ المحسنين
ودعى المال يسرْ سنّته بعض عن قوم لأيدى آخرين
واقذفى بالهم فى وجه الثرى واطرحى من حالق عبء السنين
واسخرى من شانىء أوشامت ليس بالمخطىء يوم الشامتين
وتعزّى عن عوادى دولة لم تدُم فى ولد أو فى قرين

ولا شك أنه يعنى بالشامتين هنا الملك فؤاد. ولكنه استدرك وخشى عاقبة هذا القول وحاول التنصل فقال :

مُنهض الشرق علىٌّ لم يزل من بنيه سيد فى عابدين
يُصلح الله به ما أفسدت فترات الدهر من دنيا ودين

وكان مطران الشاعر أبعد جرأة منه يوم جاءوا بعبد القادر بن الخديو عباس ميتاً محمولا ، وقد خفقت الأعلام . واضاء ليل القاهرة واستحال نهاراً . وتأنقت القاهرة بيد نفاق الحكام والرعية فى يوم جلوس الملك فؤاد على العرش .

لم تعوز الجرأة مطران أن يرثى عبد القادر هذا بقصيدة تضمنت هذا المصراع .

(وتمّر بالزينات مرّ الساخر)

نلتمس له بعض العذر

لايسعنا إلا أن نلتمس له بعض العذر فى استخفاء وفائه للخديو . فان ضعف أعصابه وقسوة ما لقيه فى منفاه . كل هذا جعله غير مستطيع تضحية أخرى .

تواضعه

ومن أخلاقه الكريمة: التواضع . لم أره يتعالى على إنسان قط . مهما صغر شأنه . على علو شأنه هو وبعد صوته .

كان يلقب أصغر زجال فى مصر وأحقر شويعر بالأستاذ ، أدباً منه ورقة . ويحتفل بصغار الصحافيين ويجلس إليهم ويعظمهم ويقابل صغار الطلبة الذين يدفعهم إعجابهم به إلى السعى إليه ، بالظرف وكريم اللقاء .

حبه لأسرته

كان يحب أولاده وزوجه حباً فاق المألوف عند البشر . فقد كان يغرم بهم غراماً ناصباً .

فلا يفتر عن تدليلهم ولا عن رعايتهم رغم بلوغهم سن الشباب وقد خص أصغرهم حسيناً بحب جعله يتبرم بهذا الحب فهو لا يغبه تقبيلا ولا سؤالا عن العافية .

وقد أسلفت أنه كان يقول : اثنان لا أستغنى عن صحبتهما : حسين ومبسم سيجارتى :

وهذا الشغف بأولاده ألزمه أن يقيم لابنته داراً تجاور داره فى المطرية يوم كان يسكنها . وداراً فى الجيزة حيث انتقل إليها . ويضم هذه المنازل سور واحد فى البلدتين .

وقد سرى هذا الحب للحفدة أيضاً . فهو مشغول بهم يهاديهم باللعب ويوسعهم تقبيلا وشما وضما .

وكثيراً ما يصحبهم إلى حديقة الحيوان مع الخدم ليلاعبهم هناك .

كان ملولا :

وفى أخلاقه الملل . فقد كان يمل قميصه ولا يصبر على أمر من الأمور ولا على جليس يطول جلوسه فى حضرته . فهو ملول قلق لا يستقر .

وقد طالما شكى جلساؤه ومعارفه منه . لأنه ربما اقتضب المجلس، وانسل منه بغير عذر واضح يبرر هذا الفعل .

كان من عادته أن يحضر إلى مكتبه عقب رجوعه من ساعتيه . وكنا : أنا وولداه ومعنا بعض الأصدقاء نجلس للسمر . وكنا نتبين خطواته من بعيد . فقد كانت تمسح الأرض بصوت لا تخطىء الأذن معرفته .

وكان له فى المكتب كرسى مريح الجلسة . نتحاشاه كلنا . فلا نقربه حتى فى غيبته، وكنا نطلق عليه اسم (كرسى الشيخ) .

فإذا دخل علينا المكتب لزمنا الصمت . فحيانا بأعذب تحية ثم يقتعد كرسيه مرفوع الرأس .

فلم يكد يستقر قليلا حتى هب واقفاً ويندفع خارجاً من غير تحية ولا كلام .

بلغ به الملل غاية الغايات :

حدث أنه أراد يوماً أن يبيع عقاراً رابح الثمن يبلغ ثمنه عشرات الألوف .

وقد ضربت الساعة الحادية عشرة موعداً . يحضر فيه الشارى إلى مكتبه . وينطلق الاثنان إلى قاض البيوع للتوقيع والدفع .

فتأخر الشارى دقائق عن موعده . جاوزت العشر بقليل . فما كان منه إلا أن هب واقفاً وهو ضجر . يلعن الصفقة ويذم الشارى ويعلن بطلان البيع .

وهم بالخروج من مكتبه ، فتصدى له ولداه يرجوانه الانتظار قليلا وهو يأبى مللا وضجراً .

ولم يلبث هذا المشهد إلا قليلا حتى حضر الشارى . واعتذر فلم يكلمه وخرجا صامتين إلى المحكمة .

سريع الغضب مرهف الحس :

كان سريع الغضب مرهف الأعصاب سريع الرجوع إلى الاعتذار من غضبه .

جالسته يوماً فى جروبى صباحاً . وكان معنا أحد أبناء الذوات المفلسين . إلا من التظاهر بالكبرياء والزى الأنيق . وكان عارماً شرساً . عوده ماضيه الثرى الاستهانة بالناس . ولم يقعده حاضره المفلس عن هذه الاستهانة .

وحضر أحد المتشاعرين . وكان ردىء الشعر قبيح الوجه تجاوز الأربعين فحيا وجلس .

ولم يلبث أن قال : يا باشا حضرت لسعادتك لأسمعك قصيدة نظمتها :

ولم يتركه يجيب بالرفض أو بالقبول . بل اندفع كالصاعقة وهوى بسبعين بيتاً من الشعر الغثّ المقيت على رأس شوقى كالحجارة .

وشوقى ساكت يكاد الغيظ يخرجه من جلده.

حتى إذا فرغ هذا المدفع من طلقاته . التفت إليه قائلا : ما رأى استاذى فى هذه القصيدة .

وكانت كلمته هذه : الشرارة التى أشعلت الفتيل فى هذا الغيظ المركوم فى هذا الصدر الحرج الملول .

فلم يكد يسمع هذا القول حتى صاح غاضباً ثائراً : وحشه وحشه ياناس ارحمونى هو ما فيش غيرى حد بيشعر فى البلد .

وكانت هذه الغضبة حافزاً ومشجعاً للوحش الرابض فى نفس ابن الذوات المفلس . الذى منعه الإفلاس من أن ينطلق إلا فى حذر . ولكن غضبة شوقى أطلقته كالثور فى ملعب المصارعة .. فلم يعرف حدوداً تقفه . وجر الرجل جراً عنيفاً حتى باب جروبى ثم ألقى به فى الشارع .

فارتدت إلى شوقى طيبة نفسه . ولاذ الوحش فى خوف خشية ثورانه . وسادنا الوجوم .

كان فى شبابه كريماً :

كان فى شبابه جواداً لا يليق مالا ولا يعبأ به . ذكروا أنه كان إذا جاءه مال وهو فى مجلس شرابه — وكان هذا المجلس غالباً ما يكون فوق كرسى عال قبالة البنك فى الحانة — كان يضعه أمامه فوق ظهر البنك وهو كثير . كما يضع أحدنا صحيفة أو صندوق حذاء . أو حزمة من جرجير . ثم لا يبالى به . فهو دائماً فى انتقال بين موائد أصحابه وندمائه . والمال فى موضعه ، حتى إذا استوفى سمره حمله معه .

وحضرت مشهداً بين صديقين له فى شبابه تنازعا فيه . سببه أحدهما سباً قبيحاً . وانبرى الآخر يدفع عنه . فاحتدم الجدل . وإذا بالمدافع يلتفت إلىّ قائلا : اسمع انت مثل أولادنا — وكنت أحظى بصداقتهما رغم الفارق فى السن — وسأقص عليك فضل شوقى على هذا الجاحد الذى يعيبه .

جاءنى فى ليلة وهو ينتفض رعباً . وقد أذهله رعبه عن اللياقة فى اللقاء حتى أدخله إلى مخدعنا أنا وزوجى . وكانت الساعة نصف الليل وصاح : ألحقنى يا محمود إن السجن ينتظرنى فى صبيحة غد . والفضيحة توشك أن تنزل بى . والطرد من الوظيفة جزاء حتم . فقلت له : ما لك ما لك .

قال : إن مفتش الداخلية سيزور عملى غداً للتفتيش عليه — وكان يعمل ناظراً لمعهد أمن تابع لوزارة الداخلية — وقد بددت من خزانة المعهد ٣٠٠ جنيه فإن لم أرجعها إلى مكانها من الخزانة فى الصباح فقد هلكت .

فقلت : و من أين المال . والليل قد انتصف . ومن من الناس يسعفنا بهذا القدر الكبير في مثل هذه الساعة .

فلم يزدد إلا نواحاً وإلحاحاً .

فأدركني أمل في شوقي . فقلت : هيا إلى شوقي في سان جيمس عسى أن ينقذك .

ارتديت ملابسي . وقصدنا شوقي في سمره . وبسطت له لهفة صاحبنا وحاجته ومصيبته .

فإذا به يخرج لنا من كل جيب من جيوبه ذهباً . ويصبه على المائدة . ويقول عدا . فعددنا حتى استوفينا الثلاثمائة . وأنقذ شوقي هذا الناكر العياب .

فما كان من هذا الناكر الجميل العياب إلا أن قال : انها فلوس الرتب والنياشين .

فلم أستطع أن أمسك لساني . فقلت : يا سيدى الباك إنه ماله ولا شأن لك في مصدره .

أموال الرتب والنياشين :

وقد تحدث رحمه الله أمامي في أموال الرتب والنياشين هذه كما تحدث غيره من الثقات فيها أيضاً .

قالوا : ان الخديو كان من عادته . كما كان من عادة أسلافه . وعادة من جاء بعده من سلاطين وملوك أن يتاجروا في الرتب والنياشين

وكان لكل هؤلاء وسطاء . فكان شوقى وسيط عباس الثانى لأنه كان شاعره وصفيه وموظفه .

وهل كان يستطيع شوقى أن يعارض رغبة عباس فى هذه التجارة وهو سيد البلاد وسيده .

وكان شوقى يعلم أن فى هذه التجارة الشائنة ربحاً عظيما للجمعيات الخيرية والملاجىء وكل المؤسسات المقامة للرحمة بالإنسان . فلولا هذه الأموال المأخوذة من هذه التجارة . ما تبرع عباس الثانى لمحتاج بمليم واحد . ولما قرأ القارىء فى صحيفة سيارة (تبرعت الحضرة الفخيمة الخديوية بمبلغ مائة جنيه للجمعية الخيرية الإسلامية . أو لغيرها من مؤسسات البر) .

وفى الحق أن شوقى كان ينال من هذه الأموال بعضاً ، أنفقه كله على لهوه وكرمه . ولم يأخذ منه ضيعة . ولم يقم منزلا .

وكان هذا المال يحصله هبة من الخديو . فهو شاعره ومادحه والمثنى عليـــه . وكان له كالمتنبى لسـيف الدولة والبحترى للمتوكل وأبى نواس لمحمد الأمين وقديماً قالوا : إن الشريف لا يستحى من عطية الملوك .

وأى ضير فى أن يأخذ شـــوقى من يد الخديو بعض أموال الاقطاعيين الكسالى المتهافتين على تلك الألقاب الزائفة ليرفه عن نفسه الشاعرة المتطلعة إلى المتعة .

حرصه فى كهولته :

كان شوقى كريماً فى شبابه كما قرأت . ولكننى أدركته فى كهولته . فكان أجنح إلى الحرص منه إلى الكرم .

كان إذا كثر قصاده اعتذر إليهم وهو غاضب . فاذا انصرفوا التفت إلينا وقال : لو أعطيت كل إنسان لأصبحت شحاذاً مثل هؤلاء .

ولكنه كان طيب النفس سمحاً إذا تحقق من نازلة نزلت بصديق أو محتاج .

بعث له مرة الشاعر العراقى المكفوف عبد المحسن الكاظمى بكتاب يشكو فيه فقراً ومرضاً طرحه على الفراش .

فبعث إلى وأرانى الخطاب وسألنى أن أتحقق أمر الكاظمى . ومكان صدقه من هذا الكتاب . وبين لى موضع منزله فى العباسية .

فأجبته : انى سأذهب إليه وأكشف لك حاله .

وكنت امرءاً كسولا . وبيت الكاظمى بعيد . فقلت لنفسى : وما عليك أن تشهد شهادة زور لأديب شيخ كلنا يعلم فقره .

فذهبت أتلكأ فى مشارب القهوات ساعتين ثم عدت إليه . ووصفت من مرض الشيخ وحاجته ما استثار كامن رحمته .

فبعث إليه مع كاتبه قدراً طيباً من المال .

ورآنى يوماً عقب موت أبى . وقد لاح الضيق على وجهى . فأدرك أنى فى حاجة إلى المال . فلم يشأ أن يحرجنى أو يؤلمنى فيقدم لى هبة أو عطية . فتلطف وقدم لى مالا ودعاه قرضاً . وكنت فى حاجة إلى ذلك المال فأخذته منه .

فلما آذن الله بالفرج تقدمت به إليه . فأبى أن يأخذه . وقال : أنت ابنى . فليس لك أن ترد مالا تأخذه من رجل كأبيك .

خوفه من العين :

كان يتطير ويحب الفأل الحسن، فاذا أخذ فى حديث مستبشراً به. وتكلم أحد جلسائه بكلمة تحمل معنى الشؤم . وجم وقطع حديثه وترك المجلس .

وإذا جرى الحديث نحو اليمين فذكر فيه اليمن والرجاء والفأل الحسن ،لاح على وجهه سرور طفل ظفر بلعبة كان يتمناها .

وكان يكره العين ويبالغ فى ذلك . ويتوجس شراً إذا لمح محروماً يرمق نعمته بعين ظامئة .

وكان يخص جماعة الأدباء البؤساء بهذا التوجس . لأنه يعلم عن كثير من هذه الطائفة غرورهم وشكوى حظوظهم وأنهم أولى بالغنى والنعمة من سائر الناس .

وكان يقول : هؤلاء الذين كان يقول بلسانهم ابن الرومى:

لم أكن دون مالكى هذه الأم   لاك لو أنصف الزمان المحابى

كان يكره الصحافة الصفراء ويخافها :

كان يجزع من النقد جزعاً شديداً . ويخاف هذه الصحف الصفراء التى كانت تطبع فى زمانه . وليس فيها إلا التجريح والتشهير .

وكانت سوقها نافقة فى ذلك العهد . لخوف الناس من هتك أعراضهم .

فكان يغدق على أصحابها الأموال الجليلة . ولا يلقاهم إلا بالتكرمة وخلع الألقاب الضخمة عليهم .

وكان خوفه منهم منصرفاً إلى شعره . فقد كان لا يطيق أن يقرأ سطراً واحداً فى الحط منه .

كان شعره عرضه عند هؤلاء . وكانوا يعلمون ذلك عنه . فإذا أنسوا منه قبضاً عن العطاء غمزوا شعره . فهرول إليهم مسترضياً باذلا ماله . وكان هذا سبيلهم إلى سلبه .

وقد غضب علىّ مرة غضباً شديداً . لأنى كنت قد قرأت فى احدى هذه الصحف الساقطة نقداً لشعره . فأنهيته إليه بغير قصد إلا التنبيه . فثار وصاح فى وجهى :

يا أخى هو لازم تبلغنى شتيمتى . أنا ما أقراش الصــحف الساقطة دى . . .

ولم يكن صادقاً . فقد كان حريصاً على قراءة هذه الصحف . ودليلى أنه أرسل إلى صاحب هذه الصحيفة فى اليوم التالى لنشره النقد . وأعطاه وخلع عليه أضخم الألقاب كعادته .

جزعه من النقد :

ولم أره جازعاً يوماً كيوم ظهور كتاب الديوان للأستاذ العقاد وهو كتاب تضمن نقد أشهر قصائده .

وفى الحق أن العقاد لم يكن يعنى إرضاء الفن فى هذا النقد ، بقدر ما كان يعنى شيئاً آخر . كان يعنى الشهرة على حساب هذا النقد .

لأن شوقى كان مقدس الشعر عند نفسه وعند كثير من الأدباء .
وقد تألفت جماعة من شباب الأدباء . تآمرت على شيوخ الأدباء لهدمها.

وكان هؤلاء الشيوخ تحوطهم هالة من القداسة . فتولى هؤلاء الشباب كشف هذه الهالة وإظهار زيفها فيما يزعمون . فقسموا أنفسهم ، واختص كل شاب بشيخ ، ليبنوا على أنقاضهم أمجادهم .

ولكنهم لم يصنعوا شيئاً . ولم يزحزحوا هالة . ولم يهدموا شيخاً ، وبقى الشيوخ أحياء خالدين .

فلما يئس هؤلاء الشباب من هدم الشيوخ ليبنوا على أنقاضهم أمجادهم . انصرفوا إلى تشييد أنفسهم من طريق آخر فأفلحوا فى الظهور.

ونرى اليوم هؤلاء الشباب قد أصبحوا شيوخاً لهم أمجادهم . كما نرى الأمس يعود . فقد انبرى جماعة من شباب الجيل يحاولون هدم هؤلاء الذين حاولوا بالأمس هدم الشيوخ المقدسة ، وإن ربك لبالمرصاد .

وهذه شنشنة قديمة . فقد قال بشار : لقد هجوت جريراً . فلو أجابنى لكنت أشعر الناس .

شوقى وخصومه :

ولكن شوقى لم يكن كجرير . لأنه أطلق أصحاب الصحف الصفراء الذين كانوا عبيد ماله على هذه الجماعة . فأعملوا فى أعراضهم تمزيقاً . وفى أدبهم هدماً . وكان هذا ما يبغونه لأنه كان سبيلهم إلى الشهرة .

ومن الإنصاف لشاعرنا الكبير أن نقول : ان بعض حملة هذه الصحف على هذه الجماعة لم تكن بإيعازه . إنما كان إعجاباً بشعره .

ولكنهم كانوا عقب كل موقعة من هذا الجدل الصاخب تراهم يترددون على مجلسه فى محل صولت فيقابلون منه بالابتسام والترحيب وبالمال فى كثير من الأحيان .

وإنى أذكر حادثاً طريفاً لأحد هؤلاء الكتاب وكنت أحبه لظرفه :

جاء هذا الكاتب إلى شوقى فى صولت وكنت أجلس معه فى نفر من أصدقائه فسلم عليه . فلم يبش له وأظهر الضيق به ، لأنه كان يعتقد أن هذا الكاتب وأمثاله إنما يزورونه طمعاً فى عطائه .

وقد كنت قرأت مقالا لهذا الزائر فى الصباح فى هذه الصحف الصفراء ، يدفع به عنه ويسب هؤلاء الشباب .

فوقر فى نفسى أن شوقى لم يكن قد قرأ هذا المقال . قدرت هذا لمكان الضيق الذى فى وجهه بهذا الوافد . ولم تكن هذه عادته مع هؤلاء الفرسان الذين ينافحون عنه .

ولما كنت أحب هذا الكاتب كما قلت . تقدمت لإنقاذه . وكان قد وردت كلمة (جديلة) فى مقاله .

فقلت يا سيد ابراهيم : مامعنى (الجديلة) ؟ — وأنا أبغى التعرض لذكر المقال —

فانتفض الأستاذ كالملسوع . واستمسك بهذه العروة وجلس منى مجلس المعلم . وأخذ يشرح معنى الكلمة . فى أناة وسرد طويلين .

فالتفت إلى شوقى وهو كالعاتب . وقال : إيه المناسبة . وقد أدركت أنه يود أن يقول : لماذا لم تسألنى . لأنه يعرف أن الأستاذ لم يكن أهلا للسؤال فى اللغة .

فقلت : انى أسأل الأستاذ ابراهيم عن معنى هذه الكلمة لأنها وردت فى مقال له صباح اليوم قرأته . يمجد فيه سعادتك . ويسفه عقول هؤلاء المغرورين الأدعياء .

فتغير الحال غير الحال ولاح التطلق على وجهه . ونظر إلى السيد ابراهيم بعين غير التى كان ينظر إليه بها ورحب به .

وبلغت غرضى من نفع الأستاذ . ولو أنه غفر الله له كان يقسو علىّ فى غطرسته عند تفسيره لكلمة (الحديلة) .

وكان فارسه الأول فى هذا الميدان فؤاد الصاعقة . والصاعقة هذه : صحيفة كان صاحبها فؤاد هذا .

وكان فؤاد لا يجارى ولا يبارى فى سلاطة لسانه . وكان يختار كلامه سجعاً مسموماً ينهال به على الضحايا كأنه نبال الهنود الحمر!.

فكان يطلق هذه السهام على خصوم شوقى فى براعة فنية . إن عددت الهجو فناً .

وكان له حصة الأسد فى تقدير الشاعر العظيم له وتمويله .

ويليه الشيخ فهيم صاحب صحيفة عكاظ . فهو أحد خريجى الأزهر بغير اجازة .

وكان موقفه فى الصف وعمله فيه : نشر قصائد شوقى المنشورة قديماً . متوجة بهالات من الثناء عليه واللعنة لأعدائه .

وثالث الفرسان : رجل صرعته بذاءته برصاصة أطلقها عليه عين من أعيان الصعيد كان قد ذاق الويل من المقتول فى صحيفته الصفراء .

وكان هؤلاء كوحوش السرك . إذا غفل عن أحدهم شوقى واسترخى سوط ماله عن إلهابه . وثب وثبة خدشه فيها بمقال مضاد .

وكان شوقى على عظيم مكانته وعلى قدمه الراسخة فى الفن والخلود . متعباً منهوكاً . لا يستقر من الدأب بين دور الصحف . فهو فى كد بين داود بركات فى الأهرام وعبد القادر حمزة فى صحيفة البلاغ والدكتور هيكل فى السياسة . وأمين الرافعى فى الأخبار . وتوفيق دياب فى الجهاد .

كذلك مائدته لا ترفع أطباقها . ولا يطوى غطاؤها . فهى دائماً محفوفة بالصحفيين وغيرهم ممن تخشى أقلامهم ويخاف نقدهم .

وفى الحق أنه هو الذى صب على نفسه هذا البلاء . فقد أغرى به جزعه الشديد من النقد كل هؤلاء السادة . . .

فقد عرفوا ضعفه فى هذا السبيل فاستغلوه .

فلو أنه تماسك وأظهر قلة مبالاة بمدح أو ذم ، لسلم من كثير من الآلام النفسية التى كانت تعتوره من الذين عودوه المدح العريض أو الذم القبيح .

فقد كان شعره غنياً عن هؤلاء وهؤلاء . فهو يحمل فى أبياته خلوده وثناءه . ولكنها النفس البشرية . وطبيعة الشاعر العصبية هما اللتان حملتاه ما لا يطيق .

خلقه السياسى :

كان أمير الشعراء . وحامى لغة القرآن . وشاعر الشرق . لا يقنع بكل هذه الألقاب المخلوعة عليه .

فقد أراد أن يزيدها لقباً علياً لماعاً . يستهوى الكثير من الأعيان والعمد والاقطاعيين . كان يشتهى أن يلقب بالشيخ المحترم أحمد شوقى عضو مجلس الشيوخ .

وقد التفت يمنة ويسرة فلم يجد غير الزعيم سعد زغلول مانح هذه الألقاب . فسعى نحوه . على كره منه له كان يكتمه إلا فى مجالسه الخاصة التى كانت تضم صفوة الأصفياء .

التفت إلى سعد وعرف الطريق إلى مرضاته . وهى طريق واسعة سهلة . فسلكها ، سلكها بنظم الشعر فيه مثنياً . وفى حزب الوفد منوهاً ومشيداً .

وكان سعد يسره أن يظفر بمدح هذا الشاعر العظيم . فالتقى الرجلان وتفاهما .

ولم يكتف شوقى بمدح سعد وحزبه . بل جنح إلى وسيلة ثانية : هى إغداق الأموال والهدايا وإعداد الأطعمة الدسمة للأذناب ، وهم الذين لا يخلو منهم حزب من الأحزاب . والذين امتلأ بهم حزب الوفد خاصة وعرف خطرهم فيه .

كان شوقى يتخذ هؤلاء ألسنة عند الزعيم سعد فى التنويه به .

وقد نجح رجل السراى القديم فى هذه الوسيلة أعظم نجاح ودخل مجلس الشيوخ شيخاً محترماً عن دائرة لم يزرها ولم يعرف عن أهلها شيئاً قط .

ولكن هذا لم يمنعه أن يكون دستورياً . فقدكان يتألف محمد

محمود . وكان محمد باشا مفتوناً بشعره لأن الرجل كان أديباً يحب الشعراء .

وقد ناله قسط من ثناء شوقى فى قصائد ألقى بعضها فى دار محمد محمود نفسه .

ولم تمنعه أيضاً بعد ذلك : أن يكون شعبياً بقلبه . وذلك حين تزوج أكبر أنجال صدقى باشا من حفيدته .

فكان هذا الصهر داعية للجنوح إلى حزب الشعب وزيارته أحياناً فى داره .

وكنت تراه وطنياً فى صداقته للأستاذ الكريم أمين الرافعى وفى رثائه لمصطفى كامل فى ذكراه . ورثاء الأستاذ الصوفانى . ووداعه للأستاذ حافظ رمضان كلما اعتزم السفر إلى أوربا .

ولم يكن هذا عجيباً من شوقى . فقد كانت حمى التقلب فى الأحزاب موضة العصر السابق .

فقلما ثبت سياسى واحد فى حزب واحد . فقد كانوا يميلون مع الحكم حيث يميل . فهم فى الحقيقة وزاريون حكوميون . حتى زيور باشا كان له حزب روحى . انضم إليه كثير من الساسة للمغنم .

وكانت غرف السكرتيرين الخصوصيين نوادى أحزابهم وملتقى اجتماعهم .

فاذا دخلت إلى هذه الغرف الواسعة المؤثثة بأفخر الأثاث . ألفيت هؤلاء السادة فى انتظارهم الممل للإذن فى المثول أمام حضرة صاحب المعالى الوزير . يجاهرون فى أحاديثهم مع بعضهم بعضاً بالانتقاص

من زعماء كانوا بالأمس يلعقون أيديهم ويشيدون بوطنيتهم ويرفعونهم إلى مصاف الآلهة . على شريطة أن يكونوا رؤساء وزارات . أو وزراء . وأن تكون أحزابهم هى الحاكمة .

وأذكر أنى كنت عند صديق كان يعمل سكرتيراً فى حزب الاتحاد. الذى ألفه حسن نشأت باشا بايعاز من الملك فؤاد .

وقد بلغ فى أيام ازدهاره مكاناً واسعاً ضاق بالمنضمين إليه من أصحاب الألقاب الضخمة والأراضى الواسعة . وبكثير من العلماء والأدباء والأطباء والمهندسين ، وبغيرهم من الطوائف .

حتى إذا ذبل هذا الازدهار وصوحت أوراقه فى سقوط وزارته . غرق صديقى السكرتير فى أكوام البرقيات المنهالة كرمال الصحراء فى يوم عاصف . وكلها تحمل الاستقالة من هذا الحزب والبراءة من عضويته .

وحزب الوفد ذاته على رسوخ قواعده . طالما تعرض للفناء عند زوال النعمة . لولا حرص أساطينه على القرش الأبيض لليوم الأسود .

فكان يحوز الأموال الجليلة فى أيام الرخاء . حتى إذا نزلت الشدة فتح خزائنه وألقم هذه الأفواه التى تهيأ لنباحه ونهشه . فتسكن ألسنتها وأضراسها .

وهذا هو السر الأعظم فى قوة هذا الحزب وتماسكه فى المحنة وتجنبه الموت . واليوم مات .

والحزب الدستورى الذى أفقر أعضاءه الإقطاعيين . لم يكن

يعرف الحياة إلا فى شهوات السراى . التى كانت تلتمس نفوذها وسيطرتها على الحكم فى وزارات ترقع برجال من هذا الحزب .

وإن عصر شوقى السياسى كانت تجتاحه عاصفة عاتية . لفت فى هبوبها كل ذى مكانة فى هذا البلد . ولم تفلت أحداً . فقد كان الكل يتطلع إلى البرلمان . ويسعى إليه .

ولكن شوقى كان لامع المجد فى غير حاجة إلى تشريف ، وهو ليس كهؤلاء الفقاقيع الطافية فوق أمواج الحزبية والتى لولا بحر السياسة لما طفت أبداً .

ولكن لو نظرنا فى التاريخ لألفينا كثيراً من الأدباء والفنانين زاحموا بحر السياسة ليظفروا بمكان على غواربه .

فهذا المتنبى الشاعر الفحل الخالد قد طوف فى الآفاق وجاب البلاد وحمل الكثير من الآلام ليظفر بولاية صغيرة يشرف بها فى وهمه .. فقد أغضب سيف الدولة وخاصمه وهجره لأنه لم تسوده حلب وتشرفه بوظيفة .

ونزل مصر ومدح كافورا بمدائح لم تقل فى حاكم قبله . ولما يئس من تقليده هذه الولاية المرموقة . ذمه ذماً لم يُذم به حاكم من قبل .

ولم يزل فى هذا الهم المقيم المقعد حتى قتل فى الطريق .

وقبله ابراهيم بن المهدى الفنان المغنى . اهتبل الفرصة بعد موت الخليفة محمد الأمين العباسى واضطراب أمر بغداد وغياب المأمون فى خراسان . ودعا لنفسه بالخلافة . ولم يلبث أن انهزم أمام جيوش المأمون واستخفى هارباً حتى عفا عنه المأمون .

وبلاء البارودى الشاعر معروف . فقد انضم إلى الزعيم أحمد عرابى المصرى الفلاح . وهو الشركسى الأصل . وحارب فى صفه اخوانه الشركس وأبناء عمومته الأتراك . ليظفر بمكان فى السياسة ويصبح وزيراً ثم رئيساً للوزارة .

وفى عصرنا هذا ألف جبرائيل دانزيو الشاعر الإيطالى جيشاً وحارب حتى استولى على فيوم وأقام نفسه حاكماً عليها .

وبلسودسكى عازف البيان الأشهر أمّ قومه البولونيين وحارب حتى ظفر باستقلال بلاده ونصبوه رئيساً للجمهورية .

وغير هؤلاء كثير من الفنانين والشعراء والكتاب. استخفتهم السياسة فاتوا دونها . وقليل منهم من انتفع بها وسلمت له أيامه فى ظلها .

فليس بمستغرب على شوقى أن يزج بنفسه فى غمار السياسة . وليس اقتحامه لها فى عهد الأحزاب البائدة هو أول عهده بالسياسة .

فقد اقتحمها أيام عباس الثانى وأبلى فيها بلاء مشهوداً . فقد كان هو صلة الوصل بين السراى والحزب الوطنى . وبين السراى والصحف المصرية والأجنبية .

حدثنى رحمه الله قال :

كان الخديو فى باريس وكان فيها مصطفى كامل الزعيم الشاب .

وكان مصطفى كامل قد طلب مالا من الخديو ليعينه على الدعاية ضد الإنجليز فأعطاه إياه .

ولكنه لم يلبث إلا يومين حتى جاءه يطلب قدراً آخر من المال .

فطلب شوقى وعجب أمامه من إسراف مصطفى كامل الذى أضاع هذا المال الكثير فى هذا الوقت القصير . وأمره أن يعرف الحقيقة ويرفعها إليه سريعاً .

قال شوقى : فأخذت أتحرى وأبحث حتى تبين لى أن الزعيم مصطفى كامل قد عزم على إقامة مأدبة فخمة لرجال الصحافة الفرنسيين . ولأعضاء البرلمان الفرنسى البارزين .

ولما كان المال الذى أخذه من الخديو غير كاف لمثل هذه المأدبة . فقد سأله أن يزيده قدراً آخر . وقد أنف أن يقدم له حساباً عن جهاده للقضية المصرية .

وأخبر شوقى الخديو عن الحقيقة فى استزادة مصطفى كامل فاقتنع وزوده بمبلغ آخر . لا حباً فى مصطفى كامل . ولا حباً فى مصر . إنما حباً فى حرب الإنجليز . الذين كان عميدهم فى مصر لورد كرومر يستذله ويسخر منه .

خلقه مع أصدقائه :

لم يكن شوقى صديقاً يحمل مدلول كلمة الصداقة من إيثار وتضحية وإنكار الذات .

فان طبيعته القلقة الملولة تأبى هذا . فلقد كان لا يصبر على هذا الضرب من الصداقة .

فكل الذى كان يبغيه ممن يعرفه أن يجلس إليه ساعة أو أقل . يختار ذلك هو بمزاجه . وكان لا يبهظ هذا المزاج بمجاملة أو بما يتعارف

الناس عليه من واجب فى زيارة مريض أو تشييع جنازة أو فى سعى إلى قضاء حاجة لمضطر .

فهو لا يكلف مزاجه فوق ما يطيق . ولو كان أخوه فى حاجة إلى معونة أو مجاملة تثقل على مزاجه لما قام له بحقه عليه .

حتى أولاده لم يكن يسعى لحوائجهم بنفسه . بل كان يبذل المال الجم لوسطاء . كانوا يسعون لهم فى شئونهم . على أنه كان يعلم أن سعيه الخاص كان أجدى عليهم . ولكنه لم يفعل .

وأذكر أن نجله حسيناً كان طالباً فى مدرسة الحقوق الفرنسية . وكان من عادة هذا المعهد أن يحضر له فى كل عام أساتذة من فرنسا لامتحان طلبته .

ولما كان من أقصى أمانيه أن ينجح ابنه . فقد سعى إلى التعرف إلى هؤلاء الأساتذة . ودعاهم إلى مأدبة ثم دعاهم إلى جولة لزيارة آثار القاهرة . فكان من هذه الجولة زيارة دار الكتب المصرية .

ولما كنت أعمل هناك . فقد تهيأت للقائهم . فلما حضروا وكان معهم . ألفيته يكاد يختنق من صحبتهم حتى خفت أن يجاهرهم بهذا فيضيع ابنه .

بهذا الخلق لم يكن له أصدقاء . بل كان له جلساء يجلس إليهم متى تطلب مزاجه هذا الجلوس .

شوقى والدكتور محجوب ثابت :

وان أصدقاءه القدماء وسماره قبل نفيه إلى اسبانيا . أغفلهم جميعاً ولم يلتفت إلا لواحد منهم فقط ، هو الدكتور محجوب ثابت رحمه الله .

فقد كان فيه من الظرف وغرابة الخلق ما لا يمكن الاستغناء عنه بحال . وقد دامت معرفتهما حتى موته سنة ١٩٣٢ .

ورغم هذا الظرف الفائق فى الدكتور محجوب وحب شوقى له . فقد كان يضيق به أحياناً .

كنا يوماً فى صولت وكان معنا محجوب . وقد أراد شوقى أن ينطلق إلى جولته المعتادة . فلما هم بالقيام تشبث به محجوب قائلا : تقوليش رايح فين . فجذب منه ثوبه غاضباً وعنفه وانصرف .

فكان انتقام محجوب منــــه دعوة نجليه ودعوتى إلى سينما الشعب . وكانت أحقر سينما فى القاهرة يومئذ . كان الدخول إليها بقرشين ..

وكانت دعوة محجوب لنا هكذا : قوموا نغيظه أنا عازمكم على السينما . وكان يرجو أن تبلغه هذه الدعوة فيغتاظ فى وهم الدكتور محجوب .

وكان من بلائى الناصب : مرورى على محجوب واصطحابه إلى كرمة ابن هانى فى الجيزة . كلما دعانى شوقى إلى مائدته للغداء .

فقد كان الدكتور آفة من الآفات . كان يستطيب التلكؤ فى كل خطوة يخطوها . كان يكلم من يعرف ومن لا يعرف . ويحاور فى السياسة وفى السودان خاصة كل من يلقى من معارفه وما أكثرهم . فكنا نصل إلى كرمة شوقى بعد الغداء بساعة أو أكثر . وقد انفض عن المائدة كل من حف بها . وقد بلغ بنا الجوع غايته . فكان يعاتبنا على التأخر .

فأشير إلى محجوب قائلا : هو السبب فقد قطعنا المسافة من بيته إلى هنا فى ساعات . فانه جزاه الله الخير يأبى إلا أن يخطب كل من يلقاه بخطبة سياسية . وانك ما اخترتنى لاصطحابه إلى مائدتك إلا لكرهك فى تناولنا طعامك .

فكان يضحك ويأمر لنا ببعض الطعام من بقايا طيبة كان قد أتى على أكثرها الضيوف ممن سبقنا .

وما زال يغرينى بمحجوب . حتى هجوته فى شعر . كان يقول : إنه يستثقل ظلك وينهى أولادى عن صحبتك .

ولما كنت ضيق الصدر لين الأذن . فقد تقدمت إلى المرحوم سليمان فوزى صاحب الكشكول بقصيدة أداعبه فيها .

وكانت صحيفة الكشكول لا تخلو أسبوعياً من التندر على محجوب والعبث به .

فقلت هذه القصيدة بعد مقدمة يسيرة هى :

إلى مهبط النمل . ومجمع القمل . إلى ذقن الغول . التى لاتبول..الخ

يا ذقن محجوب عليك سلام نشرت عليك غبارها الأيام
فأوت إليك من الشقوق عقارب وأوى إليك الفيل والضرغام
أشبهت معرفة الحصان وذيله وعلى الخلود شبيهك الأهرام

وهى طويلة . فجن جنونه . وحمل على بلسانه وأراد أن يشكونى إلى النائب العام .

وكنت كلما دخلت محل صولت أسرع إلى ورفع عصاه فى وجهى . فكنت أهرب منه بين ضحك شوقى وسروره .

فلما تبين لى أن هذا من فعلات شوقى . وأن الدكتور رحمه الله لم يذمنى غائباً قط ندمت . واهتبلت فرصة تكريم بعض العمال له . ونظمت قصيدة فى الثناء عليه . ودلفت إلى صولت وكان محجوب هناك ومعه شوقى والدكتور هيكل والأستاذ صالح البهنساوى .

فلما بصر بى محجوب تململ وهم بعصاه . فقلت : مكانك يا دكتور ، لئن كنت أسأت بالأمس فقد أحسنت اليوم . وانطلقت أنشده القصيدة وكان فيها :

محجوب كم لك فى البلاد وأهلها   من موقف فذّ وطيب مآثر
وبراعةٍ فى الطب تسكب رحمة   فوق الوساد على المريض الحائر

فلم أكد أنتهى من قراءتها حتى ابتسم راضياً وقال : حقاً يا عبهور — وكانت هذه كلمة يقولهـا فى كل حالاته راضياً وساخطاً — غسل إحسانك إساءتك . فقمت وقبلت لحيته وعدنا إلى أحسن حال .

وكنا نسمر ليلة فى دار شوقى . وكان الدكتور محجوب قد دخل فى الطبعة الرابعة من طبعات الوفد . فقد كان كلما تألفت طبعة للنضال قبض عليها الإنجليز وزجوها فى المعتقلات .

وقد حدث هذا فى عهد من العهود السياسية فى مصر . فقد كانت هذه الجماعات المؤلفة المهيئة للنضال السياسى إذا اعتقلت احداها خلفتها أخرى . فكان الكشكول يطلق على هذه الجماعات الطبعات . وكان محجوب فى الطبعة الرابعة كما قدمت . وكان قد حل دورها فى الاعتقال فهى فى وجه المدفع .

.. وكان شوقى يعلم عنه جبناً ونكولا . فسارنى قائلا : إذا جاء على لطفى فاخلُ به ودعه يمثل ضابطاً من القلم السياسى . وأنه حضر إلى بيتى للقبض على محجوب .

وكان على لطفى رحمه الله ضابطاً حقاً . وكان صديقنا . وكنا لا نفترق . وكان يحضر ليالى شوقى جميعها .

فخرجت إلى حديقة الدار وانتظرت على لطفى وكان قد تأخر قليلا . فلما جاء حملت إليه عبث شوقى بمحجوب . وأفهمته دوره فى الملهاة وكان ممثلا بارعاً .

وكان من عادة محجوب إذا اطمأن به مجلس صال وجال وطلب النزال وسب الإنجليز وكشف عن ساعديه علامة الجهاد . وسلب الجالسين ألسنتهم فلا يتكلم إلا هو .

فبينا هو كذلك وقد احتدم وطيسه . دخل على لطفى وقد اصطنع وجهه الصرامة . وتقدم إلى شوقى ورفع يده إلى جبهته بالتحية العسكرية وقال : يا سعادة البك أنا آسف لأنى حضرت فى شأن ثقيل على نفسى . ولكن الأوامر هى الأوامر . فتظاهر شوقى بالانزعاج وقال : خير يا ابنى فيه إيه .

قال : عندى أوامر بالقبض على الدكتور محجوب ثابت لحساب السلطة العسكرية الإنجليزية .

فلم يكد يسمع محجوب هذه الكلمات حتى زاغ بصره ورفت لحيته . واصفار لونه وتراخت أوصاله . ونظر إلى الجميع . ثم تظاهر بالشجاعة . ووجد القول فيها لا يضيره بعد أن نزل البلاء .

فصاح : انظروا إلى القوة الغاشمة كيف حضرت لتنتشلنى من بينكم إلى السجن فليحيا الوفد .

فلم يستطع الحضور حبس قهقهاتهم من هذه الكوميديا . فقد انفجر الجميع ضاحكين . ففطن إلى السر . فكان فرحه وقهقهته أقوى من قهقهة الجميع وفرحهم . وأسرع إلى الضابط بحركة من أصبعه ولقبه بالعيهورمثنى وثلاث ورباع حتى بلغ المائة .

وفى محجوب نظم شوقى قصيدته الساخرة التى يقول فيها :

لكم فى الحىّ سـيارة حديث الجار والجـاره

وسبب نظمها : أنه كان لمحجوب عربة يجرها حصان أبيض أعجف لا يكاد يخطو من الهزال . كنت تراه دائماً ما بين التاسعة مساء إلى الواحدة صباحاً أمام صولت واقفاً مشدوداً إلى عجلة حائلة اللون ملقياً بمعرفته على عينيه . وقد قتله الجوع والسأم .

وكان أصحابه يتندرون على هذا الحصان . حتى أطلقوا عليه لقب مكسوينى . ! . .

ومكسوينى فى الأصل : رجل إرلندى . كان محافظاً لمدينة كورك بإيرلندا . وكان مجاهداً خاصم الإنجليز دفاعاً عن وطنه . فاعتقلوه . فاحتج عليهم بالصيام ، وأبى أن يفطر حتى يطلقوه فأبوا . فما زال صائماً حتى أهلكه الصيام . فقد بلغ وزنه ثلاثين كيلو ثم مات .

فمن هذا أطلقوا اسمه على حصان محجوب تنويهاً بجوعه وهزاله .

وكان لهذا الحصان سائق عجوز فقير الثوب والحال يشبه الحصان فى سوء حاله وبؤسه .

ويحضرنى حوار لطيف جرى بين هذا السائق والدكتور . وكان ذلك فى شهر رمضان وكنت فى زيارة للدكتور .

السائق : يا دكتور كل عام وأنتم بخير .

الدكتور : إيه المناسبة يا سيدى .

السائق : أنا مكسوف .

الدكتور : (منزعجاً) تقوليش ليه بس .

السائق : جاتنى شغلة بمائة وخمسين قرشاً . وسعادتك بتدينى ٩٠ قرش وأنا برده ما أنساش فضلك .

الدكتور : يا راجل أنا يخلصنى أقطع عيشك فى رمضان .

السائق : مافيش قطع عيش أنا رزقى زاد .

الدكتور : روح روح بلا هلس . هو أنا مش مسلم .

السائق : يا دكتور حرام دى ٦٠ قرش زيادة .

الدكتور : يا راجل دا رمضان . وقطع العيش حرام .

فانفجرت من الغيظ من هذا المنطق المعكوس . رجل وجد زيادة فى رزقه . ويريد أن يستقيل من عمله الخاسر ثم يذهب إلى آخر رابح. وآخر يوهمه أنه لا يسمح لنفسه فى قطع رزقه .

فتدخلت بينهما وقلت للدكتور : إما أن تزيده الستين أو تسمح له فى ترك العمل عندك حتى يصيب الفرج عند غيرك .

فكان جوابه : دا ابنى وأنا يخلصنى أسيبه .

قلت : إذن زده الستين .

قال : دا ابنى . ولم يزد حرفاً على هذه الجملة . كأنها كل أمل الرجل المسكين .

ولم يزل هذان البائسان : السائق والحصان فى كرب وشدة حتى أطلق الله اسارهما بالبيع واستبدلهما بسيارة قديمة (أڤرلاند) فنظم فيها شوقى قصيدته السالفة .

والحديث عن طرائف محجوب لا يفرغ . وقد اختصه شوقى بقصائد عديدة تراها فى ديوانه الرابع .

ضيقه ببعض أصدقائه :

وكان شوقى على مرحه ودعابته مع أصدقائه، كثير التنكر لهم . فقد كان يتجهم لأحدهم من غير سبب واقع إلا مزاجه العصبى وتقلب هواه .

وأظن أنى ذكرت فى التحدث عن ندمائه اسم حسن رضا المحامى. وأنه لم يرثه، وإن كان هنأه بزواجه فى قصيدة ألقيت ليلة زفافه .

وكان يحتفظ بنسخة منها صديقى الراحل على فكرى أمين دار الكتب المصرية ، وأظن أن نجله الدكتور أحمد فكرى قد عثر عليها فى أوراق أبيه رحمه الله .

وكان شوقى لما همّ بطبع الديوان . علم على فكرى بذلك فعرض علىّ نسخة من القصيدة، فحملتها إليه فأبى أن يثبتها فى الديوان .

وقد قدمت حديثى فى هذه القصيدة للتدليل على الصداقة التى كانت بين الرجلين، والتى انصرمت بموت حسن رضا كمداً لأن شوقى لم يدعه إلى حفل زواج ابنته .

وهذا يبسط لنا خلق شوقى فى تنكر مزاجه العصبى لأصحابه من غير مبرر .

خلقه الديني :

فى الحق انى لم أصادف رجلا مثل شوقى فى قوة إيمانه وراسخ عقيدته.

كان لا يصوم ولا يصلى لاعتلال صحته . وأبى أن يحج مع عباس الثانى لإرهاق أعصابه ، على يسر الرحلة وسهولتها ، ولكنه كان عميق الإيمان عمقاً تغلغل فى جميع كيانه .

كان لا يذكر اسم الله مجرداً قط . بل كان يتبعه بلفظى سبحانه وتعالى . ولم يذكر اسم النبى مجرداً البتة . بل كان يصلى ويسلم عليه دائماً.

وما مررت معه فى طريق وصادفنا جنازة محمولة .. إلا ووقف تعظيما لها رافعاً سبابته متشهداً على الميت .

وأذكر أن نجله حسين كان صغيراً . فتحدث حديثاً دينياً فيه غرارة الصبا وكان يمزح . فحملت الحديث إلى شوقى أمام ابنه . وأنا لا أعنى إلا الفكاهة . لأن الحديث لم يكن فيه خروج طارخ على الدين.

ولكنه رغم هذا غضب غضباً شديداً وعنف ابنه تعنيفاً موجعاً على حبه الشديد له .

ولا أشك أبداً أن كل قصائد شوقى الدينية إنما صدرت عن عقيدة وحب عظيمين .

ولم تكن القصائد التى كانت تنشر فى المولد النبوى أو فى ذكرى الهجرة المعظمة . قصائد أملتها المناسبات . كما يفعل كثير من الشعراء غيره ، إنما كان الدافع إليها فرح شوقى بهذه الذكريات العطرة . وكان ينتظرها مشوقاً ليفرغ نفسه فى هذا الحب المقفى .

ولا شك أيضاً ان من يقرأ هذين البيتين بروحه . يرى أن شوقى كان عظيم الحب لمحمد صلوات الله عليه :

لى فى مديحك يا نبىّ عرائس ۝ تُيّمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فان أردت تكرماً ۝ فمهورهن شفاعة حسناء

وفرغ يوماً من قصيدة فى مدح النبي صلوات الله عليه . ويشاء الله أن يعرّج عليه الخديو عباس الثانى فى سبته ، وسبته هذا : عربة صغيرة تشبه السبت يركبها من سراى القبة إلى سراى له فى مسطرد ، وهو : بلد فى ضواحى القاهرة قريب من المطرية حيث كان يسكن شوقى .

فلما عرج عليه . قال هذين البيتين على البديهة

ياليلة القدْر التى ُبلّغتها ۝ نفحات أحمد فوق كل حساب
لما بلغت السؤل ليلة مدحه ۝ بعث الملوك يعظمون جنابى

فى قوله لهذين البيتين إحساس شريف وإيمان قوى يزرى بالتملق للملوك . وفيه اتكال على الدين دون الدنيا الممثلة فى عباس الثانى . وفيه تعظيم لشأنه المستمد من مدحه فى الرسول الكريم .

وحدثنى مرة وكنت أراكبه عربته بعد أن نظر إلى طويلا . قال : إن فلاناً وفلاناً وغيرهما . طالما ناصبوا الإسلام العداء . وكانوا ألسنة ولهم أقلامهم . وصحف فى بلد عربى شقيق ينشرون فيها غمزاً فى الإسلام وتشكيكاً فيه ويشيدون بالمسيحية . فانبريت أنا لهم بهذه القصائد الدينية التى أنشرها فى تمجيد الإسلام والإشادة به وإثبات قدسيته وجلاله . فكان هذا ردى عليهم وحربى دفاعاً عن الإسلام ..

ولم يتقدم من الأدباء والعلماء أحد للردعلى هذا الأدب المسموم

لأن الأدباء كانوا يقتاتون شهرتهم من موائد هؤلاءالمبشرين ، لأنهم كانوا يمكنونهم من الكتابة فى صحافتهم ويقدمون أسماءهم المتأخرة .

وكان قوله الحق . فبعد موته بأكثر من عشرين عاماً . نشط بعض تلاميذ هؤلاء المبشرين ينتقمون لأساتذتهم بالنيل من وطنية شوقى . وأنه هجا عرابى . وقد تناسوا قصائده السائرات بالوطنية التى لم تنوه بمصر وحدها بل شملت سائر الأقطار العربية .

شوقى وعرابى :

وقد اعتذر شوقى عن هجوه لعرابى باقصاء قصيدته فيه عن ديوانه . فلم يثبتها فيه . رغم أن الجزء الأول وهو فى السياسة. قد أخرجه فى عهد الملك فؤاد وهو أخو توفيق ووارث عرش محمد على . وعرابى موقفه من هـــذا العرش معروف مشهور .

وقد كانت جرأة من شوقى ، طرحُه هذه القصيدةعن ديوانهفى عهد فؤاد اليقظ المتعصب لأسرته .

وقد سمعت منه رحمه الله أن عباس الثانى هو الذى أمره بأن يهجو عرابى ففعل،ولم يستطع تحللا من هذا الهجو لمكانهبين توفيق وعباس .

وما لنا ننسى وفاءه لتوفيق وهو الذى أحسن إليه كما عرفنا .

وحدثنى أيضاً أنه كان قادماً من الإسكندرية إلى القاهرة فى القطار . حتى إذا جاء طنطا . دخل عرابى الصالون الذى كان يجلس فيه عفواً . فلما بصر به شوقى وقف ورحب به ودعاه إلى الجلوس . فجبهه عرابى ورد عليه رداً صارماً وتركه واقفاً خجلا .

قال شوقى : لو تفضل وجلس معى لاعتذرت إليه . وكنت أنوى ذلك . ولكنه أ بى وانصرف .

ونختم هذا الباب فى أخلاق شوقى بالوقوف عند شعره الذى كثرت فيه الأبيات التى تحض على التمسك بالأخلاق الفاضلة . وأنها عنوان الأمم الراقية والآخذة بها إلى النهوض والسمو . وإن بيته الطائر الصوت الذى يتمثل به الناس فى كل داعية إلى التمسك بالأخلاق الكريمة لايزال يدوّى إلى اليوم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

ولا شك أن شوقى كان يعجبه أن يتحلى الناس بحسن الخلق . وان لهجه بهذا المعنى لم يكن قول شاعر فقط أراد أن يعظ وكفى .

فأنا أعرف خصاله . فهو إذا أحب شيئاً لهج به فى شعره . حتّى الطعام المفضل عنده كان يجد الفرصة المناسبة فى مسرحياته فيدسه فى شعره .

فمن الواضح أن شوقى كان يحب مكارم الأخلاق ويحب أن يرى المصريين متحلين بها . ولا يحب الإباحية فى الناس .

فان وجد القارىء انحرافاً فى هذا الفصل يجافى ميله للأخلاق الكريمة فإن شوقى إنسان وعبقرى . ولم يسلم إنسان ولا عبقرى من هنات قط . وإن هفوة العبقرى مغفورة له . فقد قدم للناس متاعاً وجمالا يشفعان له فى هفوات لاتضيرهم فى شىء . وإن كان يضيرهم فقدان هذا المتاع وذاك الجمال . وقد قلنا ذلك .

شوقي الشاعر

هل نستطيع أن نجزم بأن روفائيل المصور أبرع مصور أنجبته الدنيا . وأن شكسبير أعظم كتاب المسرح قاطبة . وأن الجاحظ أكتب كتاب العربيـــــة . وان بتهوفن أبرع الموسيقيين . وأن نابليـــــون قائد القواد .

قد اختلف الناس قديماً فى هؤلاء وفى غير هؤلاء . فمنهم من عقد اللواء لفرد بعينه وقدمه فى الطليعة وجعله الأول . ومنهم من خالف هذا الاختيار وقدم غيره من العباقرة .

ولم يُجمع الناس قط على أولية واحد فى هذه الدنيا ، فى فن أو صناعة أو علم . بل هم لا يزالون مختلفين فى الواحد من عظماء الفنون والصناعة والعلوم . لم يتفقوا قط فى هذا الصدد .

وان شكسبير الخالد المقدس لم يخل من سخرية برنارد شو وغير برنارد شو .

ومن الفخر لشوقى أن يختلف فيه الناس . فمن الناس من يقول : إنه أشعر من نظم من شعراء العربية . ومن هؤلاء: شعراء لهم خطرهم وذوقهم الرفيع .

يقول هذا الأستاذ عزيز أباظه شاعر المسرح . ويقوله الأستاذ أحمد رامى شاعر الأغانى .

ولا شك أن هذين الشاعرين وغيرهما من الشعراء والأدباء قد قرأوا دواوين شعراء العرب ، ووقفوا على عظمة ما فى هذه الدواوين من

شعر. ثم استقروا على ان ما قاله شوقى خير مما جاء فى هذه الدواوين .

وتعصب الذوق قديم فى هذه الدنيا . فهذا المتنبى قدمه قوم من معاصريه وغير معاصريه على كل شاعر قديم ومحدث . ومن هؤلاء الرجل الفذ فخر الشعر والفلسفة أبو العلاء المعرى .

وأخّره آخرون حتى ألحقوه بالساقة من الشعراء . وقبل ذلك كان امرؤ القيس .

وهنا نادرة للحُطيئة الشاعر المخضرم . فقد ذكر عند موته بعض الشعراء . فكان إذا ذكر شعر أحدهم . قال : بلّغوا قبيلة فلان إنه أشعر الناس . ولم يزل يكرر أسماء شعراء وأشعارهم وقبائلهم وهو يبلغ بأنهم أشعر الناس ، حتى مل . ولم تفته النكتة فقال : بلغوا الناس إنهم أشعر الناس.

فهل نستطيع أن نجزم أن شوقى أشعر من المتنبى أو من أبى العلاء . أو من بشار بن برد . أو من البحترى أو من ابن الرومى أو من أبى تمام.

لقد تعرض للبعض من هؤلاء فعارضهم فى أشهر قصائدهم فغلبوه فى بعض القصائد وغلبهم فى بعضها .

عارض المتنبى فى رثائه لجدته التى استهلها بقوله :

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذماً ... فما بطشُها جهلاً ولا كفُّها حلما

عارضه برثائه لأمه فى قصيدة أولها :

إلى الله أشكو من عوادى النّوى سهما ... أصاب سويْداء الفؤاد وما أصمى

وقد أحس بالهزيمة . فلم ينشر قصيدته فى حياته خوفاً من الفارق الفنى بين الاثنتين ، ونشرت بعد موته . وقد حذا فيها حذو المتنبى فى التفجع وذكر الغربة والفخر . فانظر إليه وهو يفخر فى هذا البيت المتهافت :

أتيتِ به لم ينظم الشعر مثلُه وجئت لأخلاق الكرام به نظما

ثم انظر إلى بيت المتنبى الذى يفخر فيه بقوة :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

ثم عارض أبا العلاء بقصيدتين . غلبه فى الأولى ، واستعلى عليه أبو العلاء فى الثانية .

عارضه فى رثائه لأبى الشريفين الرضى والمرتضى ومطلعها :

أودى فليت الحادثات كفافِ مالُ المسيف وعنبر المستاف

بقصيدة فى رثاء اسماعيل صبرى :

أجلٌ وإن طال الزمان موافى أخلى يديك من الخليل الوافى

وقد اقتص منه أبو العلاء أعظم قصاص فى معارضته له فى قصيدته

غيرُ مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

بقصيدته فى رثاء الزعيم محمد فريد :

كلّ حىّ على المنية غاد تتوالى الركاب والموت حادى

وقد هبط شوقى فى هذه المعارضة . وكان إقدامه على هذه المعارضة خطأ كبيراً . فان قصيدة أبى العلاء أعظم قصيدة رثاء فى الشعر العربى .

وقد كانت حمائم شوقى عصافير إذا قيست ببنات الهديل فى قصيدة أبى العلاء .

ثم عارض البحترى فى سينيته التى قالها فى إيوان كسرى بسينية فخمة ضخمة قالها فى البكاء على أيام العرب فى الأندلس الدابرة .

وسينية البحترى فخمة ضخمة أيضاً . رفعها النقاد قديماً وحديثاً إلى مكانة عالية .

وقصيدة شوقى رفعها النقاد إلى مكان رفيع . والأديب الناقد يقف حائراً فى التفضيل بين هاتين التحفتين الفنيتين .

فالبحترى فى سينيته بلغ آخر المدى الفنى . حتى قال بعض النقاد القدامى : لو لم تكن له إلا سينية الإيوان واعتذاره إلى الفتح بن خاقان لكفاه .

وقصيدة شوقى بلغت آخر المدى الفنى . وهى إحدى قصائده الثلاث التى توجته شاعراً عظيما . والأخريان قصيدة النيل وقصيدة أبى الهول .

ثم عارض بائية أبى تمام التى قالها للمعتصم فى فتح عمورية ، والتى أولها :

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتب فى حده الحدّ بين الجدّ واللعب

ببائية فى نصر الأتراك على اليونان عام ١٩٢١ .

استهلها بالخطاب إلى مصطفى كمال :

الله أكبر كم فى الفتح من عجبِ يا خالدَ الترك جدِّدْ خالدَ العرب

والمطلعان لا يحتاجان إلى تدليل للمفاضلة . فمطلع أبى تمام رائع حقاً وهو يجرى مجرى الحكمة . وقد أصبح مثلا تضربه ألسنة الناس عند إشادتها بفلسفة القوة واستهانتها بتزويق الكلام .

ومطلع شوقى صدره قوى . ولكن عجزه خلط بين الخالدين . وإن كان كلمة الفتح قد جمعت بينهما .

ولم يكن مطلع شوقى هو العلةفى تأخر قصيدته عنقصيدة أبى تمام. فقصيدة أبى تمام قوية متماسكة تقطر بدم الروم وتطيح بعلوجهم . وترفع من شجاعة الإسلام وبأسه وتخوض فى الفلك . وكذلك قصيدة شوقى تحذو حذوها فى قوة دون قوتها وحبكة أوهن من حبكتها .

وقد قال أبو تمام قصيدته وهو فى الشباب . ومات وهو فى الشباب أيضاً ولو عاش لبلغته السن أعلى مكانة فى الشعر .

وقال شوقى قصيدته وهو فى الكهولة وفى أوج نضجه الفنى .

وهذه قصيدة النيل . والغالب أنه عارض بها قصيدة المتنبى التى يقول فى أولها :

أرَقٌ على أرق ومثلى يأرق وهوًى يزيد وعبرة تترقرق

وقد فات فيها المتنبى وخلفه وراءه بمدى بعيد .

وقصيدة النيل: لا تزال أولى قصائد شوقى الثلاث التى ذكرتها وهى من أقوى قصائد الشعر العربى وأبرزه . وقد قالها شوقى فى الأربعين من عمره قبل نفيه إلى اسبانيا . وهى فاتحة عبقريته الكبرى . فكل ماقاله قبلها كان يقول مثله البارودى واسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم . كان هؤلاء السادة يستطيعون أن يجروا معه أشواطاً فى ميدانه .

ولكنه بهذه القصيدة سبق هؤلاء سبقاً عظيما ورفع فى يده اللواء ولم يلقه حتى مات سنة ١٩٣٢ .

وقد زادت سنو نفيه لواءه سموقاً حتى إذا رجع بلغ السماء السابعة.

ثم قصيدة أبي الهول . ولم أجده قد عارض بها شاعراً قبله ، قال قصيدة ضخمة فى هذا الوزن وذاك الروى . إنما هى قصائد قصار قيلت فى أغراض غير غرض شوقى . ولعل القارىء يكون ألمّ منى بالشعر العربى فيلفتنى إلى ذلك مشكوراً .

وعارض أيضاً ابن زيدون فى قصيدته :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طِيب لُقيانا تجافينا

فقال هو :

يا نائحَ الطلْح أشباهٌ عوادينا   نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وليس ابن زيدون كشوقى .

وعارض الحصرى فى قصيدته :

ياليلُ الصبّ متى غدُه   أقيام الساعة موعدُه

بقوله :

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحم عوده

ولم يكن يعارض الشاعر ، وانما عارض موسيقية القصيدة .

كان شاعر تاريخ :

كان شوقى شاعر آثار من الطراز الأول ، كان يعجبه أن يندمج فى القديم ويوغل فيه إيغالا بعيداً . كان يزور الهرم أسبوعياً . ويلم بالمتحف المصرى كثيراً للوقوف على التاريخ والنظر فيه بخيال شاعر . كان يستهويه القديم ويحب الماضى .

كنت معه فى غداء أعده له زوج أخته . وكان ناظر مدرسة ثانوية – نسيت اسمها – وكانت تقع هذه المدرسة فى حى قديم من

أحياء القاهرة . وكنا نتناول غداءنا فى فناء المدرسة . وكان ذلك فى غير أوقات الدراسة بالطبع . وكان الطعام لحمة رأس ، اقترحه هو على زوج أخته .

فلما جلسنا إلى غدائنا رمى بعينيه فأصاب نظرهما مئذنة قديمة كانت تشرف على الفناء من مسجد متداعٍ يجاور المدرسة . وقف نظره عليها وأخذ يتأملها وهو ساهم . وقد شغله النظر إليها عن غدائه . فلم يصب منه إلا قليلا ، وأخذ يستفسر من زوج أخته عن اسم المسجد واسم بانيه وحظّه فى القدم . وحضرة الناظر لا يعلم عنه قليلا ولا كثيراً . فغاظه ذلك . فنهره وقال : يا أخى هو انت إيه ، بقى لك سنتين فى المكان وما تعرفش اسم المسجد إيه .

ولهذا الناظر قصة طريفة مع شوقى دفعنا إلى ذكرها ذكره هنا .

كان يصحب شوقى إلى نزل الكونتنتال عقب رجوعه من المنفى .

وكان فى ذلك العهد : الجنود الاستراليون يسلبون المارة نقودهم جهاراً للسكر واللهو . ولا يبالون من أصابوا ولا من سلبوا . وكان جزاء من لا يدفع لهم شيئاً : الضرب واللكم والإهانة .

ولقد ضربوا مرة عبد الخالق ثروت باشا رئيس مجلس الوزراء رحمه الله .

فلما بدأ شوقى فى صعود سلم الفندق ومعه زوج أخته ، اعترضهما جنديان ثملان وطلبا نقوداً . فبادر شوقى ودس يده المرتعدة فى جيبه — وكان من عادته أن يفرق فلوسه فى جيوب صداره — فأخرج ريالا ودفعه إلى الجنديين وهرول صاعداً السلم .

فلما فرغا منه. وكانوا توسطوا السلم . رجعا إلى صاحبه وسألاه مالا .

فلما كان شحيحاً وكان يجيد معرفة الإنجليزية . صعب عليه أن يعطيهما شيئاً . فأخذ فى اقناعهما بقبح هذا العمل . وأن من العار على جنود الإمبراطورية البريطانية أن يسألوا الناس كأنهم شحاذون .

فلم يكن عندهما من جواب إلا قذفه من وسط السلم . فتدحرج كالكرة وتمزق ثوبه ، وانصرفا عنه وقد بلغ الأسفل .

فأدركه شوقى — وكان فى رأس السلم — فلم يواسه ولم يمسح غبار ثوبه ولم يأخذ بيده من سقطته .

لم يفعل شيئاً من ذلك . بل كان أقسى من الجنديين الاسترالين .

فقد انهال عليه لعناً وسباً وتبخيلا . وقال : يا راجل يا بخيل يا مجنون هم دول بتوع منطق . يا شيخ اشترى نفسك بنص ريال . ثم بعثه مع سائقه بعربته إلى منزله مرضوضاً ممزق الثياب .

فشوقى أبرز شاعر عربى احتفل بالتاريخ . فقد شمل شعره تاريخ مصر كله . من فرعونى إلى إسلامى .

وقد كان ينفذ بخياله اللماح إلى الزوايا من تاريخ أجدادنا فيجلوه فى أروع صورة وأبهى رواء .

كان رائع اللفتة فى الكشف عن كنوز المعانى اللائقة للموقف اللائق ، ولعله لم يسبقه شاعر إلى هذا الكمال الفنى إلا ابن الرومى .

وكان جمال المعنى لا يخدعه عن جمال اللفظ ، فهو فى بحث دائم واستقراء ، حتى يتصيد اللفظ الجزل للمعنى الرفيع .

شوقى وجزالة الألفاظ :

هنا مسألة قد خاض الناس فيها قديماً . فقد زعم بعضهم أن شوقى لا يعنى باللفظ إنما هو يعنى بالمعنى فقط . فكل غرضه فى نظمه إنما هو السبيل إلى المعنى ، لا يبالى أوصل إليه فى لفظ جزل أو لفظ مرذول سوقى . وقد زعم هذا البعض أن حافظاً فوقه فى اختيار الألفاظ الجزلة الشريفة .

وهذا ظلم فحافظ لا تتعلق جزالة لفظه بجزالة لفظ شوقى بحال .

وقد تورط المرحوم الأستاذ عبد العزيز البشرى فى هذا وهو يقدم شوقى فى المرآة فى السياسة الأسبوعية . قال إنه لا يعنى باللفظ. وعجيب هذا من البشرى الذى كان يعرف جمال اللفظ ويتفهمه بذوقه .

والغالب أن البشرى كان يجامل حافظاً الذى اشتهر عنه أنه قوى اللفظ جزله . فقد كان بين البشرى وحافظ صداقة قوية حتى أن حافظاً كان يغار على البشرى من شوقى .

حدث أن شوقى أقام حفلة ليلية . كان فيها البشرى . وكنت حاضرها . والبشرى رحمه الله يحب أن يطرب بالنشوة وكان حلو النكتة .

وكان يحضر هذه المأدبة أيضاً المرحوم عبد الرحمن رضاباشا ، وكان وكيلا لوزارة الحقانية . وكان عبد العزيز البشرى قاضياً شرعياً يعمل تحت رئاسة سعادة الوكيل ، فلم يتهيب الشيخ رئيسه فطرب شأن الجميع .

فلفت ذلك أحد مديرى الأقاليم . وكان ثقيلا فندد بالشيخ جاهراً ليحرجه أمام الرجل . فلم يأبه البشرى بذلك وصب على المدير لواذع نكاته فضحك منه الجميع .

فلما كان الغد سألنى حافظ عن ليلتنا فأخبرته بقصتها كاملة .

فدفعته الغيرة على الشيخ إلى تأنيبه فى خروجه عن وقاره الدينى اللائق به خصوصاً أمام وكيل الحقانية .

ولم يكن صادقاً فى حرصه على كرامة البشرى . فهو يعلم أنه طروب ظريف لا يرى حرجاً فى ذلك . ولكن غيرته من شوقى على البشرى جعلته يلبس له لباس الحريص على كرامته .

وعلم البشرى من حافظ عمن حمل إليه أخبار هذا السمر — وكان يحب أن يخفى عنه اتصاله بشوقى — فقال : له فلان. فغضب على البشرى سنة كاملة .

فلما تعرض البشرى فى المرآة لهذه التهمة القديمة التى كان يبرأ منها شوقى ، والذى كان يغيظه أن تلحق به . غضب عليه وثار ورماه بالجهل وتجهم له .

حتى انه عقب نشره هذا المقال فى السياسة الأسبوعية ، صادف أنه أراد السفر إلى الاسكندرية وكنا فى تشييعه على افريز المحطة . فلمح ابنه الشيخ قادماً من بعيد فلفت أباه إلى ذلك . فما كان من شوقى إلا أن أشار إلينا بالتفرق وترك نافذة القطار مسرعين خشية أن يدل وقوفنا عليه ، فيركب معه الشيخ إلى الاسكندرية .

وكان فى صحبة الشيخ متعة لظرفه تهون عليه الطريق . ولكن جهله بجزالة أسلوبه جعله فى زعمه أثقل الثقلاء .

والذين قرأوا شوقى . قد عرفوا سحر أسلوبه وجمال لفظه وحلاوة

إضافاته اللفظية . فقد بث فى هذه الإضافات جمالا لم يسبق إليه فى اللغة العربية . وحسبك أن تتأمل هذا البيت لتعلم صدق حكمنا :

قل لى بسالفة الوداد أقاتلٌ   هو حين ينزل بالفتى أم شاف

وجمال سالفة الوداد هنا لا يطاوله جمال لفظى .

وتأمل قوله :

وَأتِ قاعاً كرفرف الخلد طيباً   أو كفردوسه بشاشةَ وادى

وقوله فى رثاء فريد :

ساقةَ النعش بالرئيس رويداً   موكبُ الموت موضع الاتئاد

وقوله فى رثاء اسماعيل صبرى :

من كلّ لمّاح النعيم تقلّبت   ديباجتاه على بِلىً وجفاف

وقوله :

وتعرّوا إلى البلى فكساهم   خُشنة اللحد والدجى المسدولا

وأنت حين تنظر فى ديوانه تطالعك روعة تلك الإضافات تنساب حلوة بين دفتيه .

ولم يكن شوقى إلا ساحر الأسلوب جزل اللفظ يستعرض الحسن منه فيختار أحسنه . فهو صائغ صناع . إذا أراد صوغ عقد نثر حقيبة جواهره . فاختار ما يلائم الذوق الرفيع . وصاغ العقد بمقدار يرضى الجمال بل يبهره .

وشوقى عندى يتبع البحترى فى هذا . فهما اثنان لم يظفر الشعر

العربى بضريب لهما فى جمال الأسلوب. وإن كان البحترى يفضله قليلا لأنه أكثر ثروة وأوفر ذوقاً فى هذا الثراء اللفظى :

وسأقطف أزهاراً من رياض شوقى وأقدمها متناثرة لعلنى أظفر منك بالإعجاب معى بأسلوب شوقى .

قال فى رثاء الكاتب محمد المويلحى :

سيد المنشئين حثَّ المطايا ومضى فى غباره أشياعُه
حطّهم بالإمام للموت ركب يتلاقى بطاؤه وسراعه
قنّعوا بالتراب وجهاً كريماً كان من رقعة الحياء قناعه
كسنا الفجر فى ظلال الغوادى كرّم صفحتاه كهدْى شعاعه

***

يا وحيداً بالأمس فى كسر بيت ضيّق بالنزيل رحب ذراعه
كلّ بيت تحلّه يستوى عنـ ـدك فى الزهد ضيقه واتساعه
نم ملياً فلستَ أول ليث بفلاة الإمام طال اضطجاعه
حولك الصالحون طابوا وطابت أكمات الإمام منهم وقاعه

وقوله فى رثاء اسماعيل صبرى :

وأديل من حسن الوجوه وعزّها ما كان يُعبد من وراء سجاف
من كلّ لمّاح النعيم تقلّبت ديباجتاه على بلى وجفاف
وترى الجماجم فى التراب تماثلت بعد العقول تماثل الأصداف
وترى العيون القاتلات بنظرة منهوبَة الأجفان والأسياف
وتُراع من ضحك الثغور وطالما فتنت بحلو تبسّم وهتاف

والقصيدة كلها فى هذا المستوى الرفيع من جمال الأسلوب.. وقوله فى رثاء أمين الرافعى :

مال أحبابُه خليلا خليـــلا	وتولى اللذّات إلا قليـــلا
نصلوا أمسِ من غبار الليالى	ومضى وحده يحث الرحيلا
سكنت منهم الركاب كأن لم	تضطرب ساعة ولم تَمْضِ مِيلا
جُرِّدوا من منازل الأرض إلا	حجراً دارساً ورملا مهيلا
وتعرّوا إلى البـــلى فكساهم	خُشْنة اللحد والدجى المسدولا
فى يباب من الثرى ردّه المو	ت نقياً من الحقود غسيلا
طرحوا عنده الهموم وقالوا	إن عبء الحياة كان ثقيلا
إنما العـــالم الذى منه جئنا	ملعب لا ينوّع التمثيـــلا

هذه طاقة قدمتها لك من جمال أسلوبه . وهى وإن كانت كلها من شعر الرثاء . فذلك لأنى اخترتها من ديوانه: السفر الثالث الذى كان يصحبنى فى الاسكندرية وهو فى الرثاء . وغالب شعره يجرى إلى هذه الغاية .

وهو لاينزل إلا قليلا . لأن ذوق الاختيار عند الفنّان المطبوع لا يتزحزح من الحسن إلى القبيح حيث هو عالم بالحسن قادر عليه .

فهو إن تزحزح إنما يتزحزح درجة أو درجتين . فالموهبة تأبى عليه أن ينزل دون ذلك . لأنها غالبة عليه فى المحال . والكمال المحض غير واقع . فصفاء العبقرية قد يعتوره سحاب يحجب الشمس ولكنه لا يحجب الضياء .

وقد حدث مرات أن شوقى أحب أن يظهر للناس مقدرته اللغوية فكان يأتى بالغريب ليبهر الناس . فكان غير موفّق .

فكيف يستطيع الذوق استساغة كلمة (مخشلبا) التى أوردها فى قافية لبعض قصائده .

كان شاعر وصف من الطراز الأول :

كان يصور الروضة فيجيد عرض محاسنها ويجلوها فى جمال أخاذ ويصف القصر فتأخذك روعة أبهائه وجمال شُرفاته .

ويصف البحر فتحس بأمواجه الدافقة المتدفعة تغمرك برشاشها وزرقته الزاهية تسلبك النظر إليها والتحديق فيها .

وقد وصف النخيل وهى فاكهة العرب وغلّتها فأجاد وأبدع .

والغريب أن الشعر العربى خلا من التعرض للنخل والتغنى به اللهم إلا بيتين لمطيع بن إياس قالهما فى نخلتى حلوان بالعراق . وهما بيتان صاغ حولهما أبو الفرج الأصفهانى قصة .

أما شوقى فقد وصف النخل وصفاً شمل كل صفاته قال :

أرى شجراً فى السماء احتجبْ ... وشقّ العنان بمرأى عجبْ
مآذن قامت هنـــا أو هناك ... ظواهرها دَرَج من شَذَب
وليس يؤذّن فيهـــا الرجال ... ولكن تصيح عليها الغُرُب
كســارية الفلك أو كالمســـلة أو كالفنار وراء العُبَب
تطول وتقصر خلف الكثيب ... إذا الريح جاء بها أو ذهب
تخال إذا اتقدت فى الضحى ... وجرّ الأصيل عليها اللهب

وطاف عليها شعاع النهار من الصحو أو من حواشي السحب
وَصيفَةَ فرعون فى ساحة من القصر واقفة ترتقب
قد اعتصبت بفصوص العقيق مفصَّلة بشذور الذهب
وناطت قلائدَ مرجانها على الصدر واتشحت بالقَصَب

***

أهذا هو النخل مَلْك الرياض أميرُ الحقول عروس العزب
طعامُ الفقير وحلْوى الغنى وزاد المسافر والمغترب
فيا نخلة الرمل لم تبخلى ولا قصَّرت نخلات الترُب
وأعجب كيف طوى ذكركن ولم يحتفل شعراء العرب
أليس حراماً خلوّ القصائد من وصفكن وعُطْل الكتب
وأنتن فى الهاجرات الظلال كأن أعاليكن العَبَب
وأنتن فى البيد شاة المُعيل جناها بجانب أخرى حَلَب
جناكن كالكرم شتىّ المذاق وكالشهد فى كل لون يحب

***

والذى لفت خيال شوقى إلى النخل رياضته المحببة إليه أصيل كل يوم عندما يكون فى الاسكندرية فى الصيف .

فقد اعتاد أن يبرح داره إلى طريق أبى قير . وفى هذا الطريق كثب من رمال أطلعت نخيلا . بعضها مغمور إلى عنقه فى الرمال . والبعض خالص الجذع، فاستهوته هذه اللوحة الطبيعية بجمالها فنظم شعراً غنياً عن التنويه برقته ودقة تصويره .

وكان شوقى يعشق البحر الأبيض المتوسط ويأسره جماله . وطالما سمعت منه الإعجاب بهذا البحر .

ومن حبه له اتخذ عليه بيتاً أنيقاً من خشب . كان ينزله وأسرته فى الصيف.وقد تعرض لذكر البحر كثيراً فى شعره . ثم أفرد له هذه القصيدة التى تزخر بالمعانى الرفيعة ودقة الوصف .

أمِن البحر صائغٌ عبقرىّ … بالنساء النّواعم البيض مُغْرى
طاف تحت الضحى عليهن والجو … هرُ فى سوقه يباع ويُشرى
جئنَه فى معاصم ونحور … فكسا معصماً وآخر عرّى
وأبى أن يقلّد الدرّ واليا … قوت نحراً وقلّد الماس نحرا
وترى خاتماً وراء بَنان … وبناناً من الخواتم صِفرا
وسواراً يزين زَند كَعاب … وسواراً من زند حسناء فرّا
وترى الغيدَ لؤلؤاً ثمّ رطْباً … وجُماناً حوالىَ الماء نثرا

ومنها :

وكأن السماء والماء شِقا … صدف حُمّلا رفيفاً ودرّا
وكأن السماء والماء عُرس … مترع المهرجان لحناً وعطرا
أو ربيع من ريشة الفنّ أبهى … من ربيع الرُّبى وأفتن زهرا
أو تهاويل شاعر عبقرى … طارح البحرَ والطبيعة شعرا

ومنها :

يا سوارىْ فيروزج ولجُين … بهما حُلّيت معاصم مصرا
فى شعاع الضحى يعودان ماساً … وعلى لمحة الأصائل تبراً

ومشت فيهما النجوم فكانت   فى حواشيهما يواقيتَ زُهرا

***

لك فى الأرض موكب ليس يألو الـــــريحَ والطيرَ والشياطينَ حشْرا

سرتَ فيه على كنوز سليما   ن تَعُد الخطى اختيالا وكبرا

وترنّمت فى الركاب فقلنا   راهبٌ طاف بالأناجيل يقرا

هو لحن مضيّع لا جواباً   قـــد عرفنا له ولا مستقرا

لك فى طيّـــه حديث غرام   ظل فى خاطر الملحن سرا

***

قـــد بعثنا تحيـــة وثنـــاء   لك يا أرفعَ الزواخر ذِكرا

وغشيناك ساعة ننبش المـــا   ضى نبشاً وتقتل الأمس فكرا

وفتحنا القـــديم فيك كتاباً   وقرأنا الكتاب سطر فسطرا

ونشرنا من طيّهن الليـــالى   فلمحنا من الحضارة فجرا

تلك تأتيك بالبيـــان نبيّاً   عبقرياً وتلك بالفن سحرا

***

ورأينا المنـــار فى مطلع النجـ   ـم على برقه الملمّح يُسرَى

شاطىء مثل رقعة الخلد حسنا   ويحاكى الشباب طيباً ونشرا

جرّ فيروزجاً على فضة المـا   ء وجر الأصيل والصبح بشرا

***

كلما جئتَه تهـــلّل بشرا   من جميع الجهات وافترّ ثغرا

انثنى موجه وأقبـــل يرخى   كِلّة تارة ويرفع ســـترا

شبّ وانحط مثل أسراب طير   ماضيات تلف بالسهل وعرا

ربما جاء وَهْــدة فتردّى في المهاوى وقام يطفر صخرا

***

وترى الرمل والقصور كأيك ركب الوكرُ فى نواحيه وكرا
وترى جوسقاً يزيّن روضا وترى ربوة تزيّن قصرا

***

سيدّ الماء كم لنا من صلاح وعلىٍّ وراء مائلك ذكرا
كم ملأناك بالسـفين مواقـــير كشمّ الجبال جندا ووفرا
شاكيات السلاح يخرجن من مصـــر بملمومة ويدخلن مصرا
شارعات الجناح فى ثبج الما ء كنسر يشد فى السحب نسرا
وكأنّ اللُّجــاج حين تنزّى وتسد الفجاج كرًّا وفرا
أجم بعضه لبعض عــدوّ زحفت غابة لتمزيق أخرى
قذفت هاهنـا زئيراً وناباً ورمت هاهنا عواء وظُفرا
أنت تغلى إلى القيامة كالقد ر فلا حطّ يومها لك قدرا

***

والوصف فى الشعر : هو أسمى ضروب الشعر وأرفعها . ففيه تتوضح عبقرية الخيال وتلوح لفتات الشاعر الفحل . وفيه أيضاً تلمح كبوة الخيال الكليل وقصور المتشاعرين . فهو محك الموهبة الشعرية . يظهر صحيحها من زيفها . ففيه المرامى البعيدة للخيال المنطلق . كما فيه الصخور التى تتكسر عليها دعوى الأدعياء .

وشوقى كان بعيد الرمية فى التصوير عندما يصف . كان كامل الصورة عندما يبرز اللوحة الفنية من الغرض الموصوف . وهو ثانى اثنين فى الشعراء : ابن الرومى وهو . وحسبه مجداً أنه تال لأفحل شاعر وصّاف عرفه الشعر العربى .

كان شاعر الرثاء:

وشوقى شاعر الرثاء أيضاً . فان له فى هذا الفن أعاجيب فنية . ولعل ذلك يرجع إلى خوف هذا الرجل من الموت وإدامة التفكير فى مصيره .

فكأنه كان يرثى نفسه ويتصور جثمانه مدرجاً فى تابوت محمول على أعناق الرجال .

فكيف تأتى كل هذه الفجيعة وتنساب كل هذه الفلسفة فى رثاء رجال لم يعرفهم شوقى ولم يصادفهم .

بل نستطيع أن نقول ان هذه الفجيعة . وهذه الفلسفة كانتا تصدران عنه لأناس كان يكرههم . قد دفعه أدب المجاملة إلى رثائهم لأنهم عظماء أو لأنهم أقارب عظماء .

وقد تعرض هذا الرجل فى مراثيه إلى كل سبل الموت . فكان يخترق هذه السبل منقباً متأملا باحثاً . يصف خافيها وظاهرها حتى استجمع أسبابها كلها ونظمها شعراً .

وقد يكون فى هذا تلميذاً لأبى العلاء .

وسأقفك على بعض تأمله فى الموت والبحث فيه والرهبة منه . قال فى رثاء عاطف بركات :

خفضتُ لعزّة الموت اليراعا وجيد جلال منطقه يُراعا

كفى بالموت للنذُر ارتجالا ... وللعبرات والعبر اختراعا
حكيمٌ صامتٌ فضح الليالى ... ومزق عن خفا الدنيا القناعا
إذا حضر النفوسَ فلا نعيما ... ترى حول الحياة ولا متاعا
كشفتُ به الحياة فلم أجدها ... ولمحةَ ماثها إلا خداعا
وما الجرّاح بالآسى المرجّى ... إذا لم يقتل الجثث اطلاعا
وإن تقل الرثاء فقل دموعاً ... يُصاغ بهن أوحكماً تُراعى
ولا تك مثل نادبة المسجّى ... بكت كسباً ولم تبك التياعا
خلتْ دول الزمان وزُلن ركناً ... وركن الأرض باقٍ ما تداعى
كأن الأرض لم تشهد لقاء ... تكاد له تميدُ ولا وداعا
ولو آبت ثواكل كلّ قرن ... وجدن الشمس لم تُثكل شعاعا
ولكن تضرب الأمثال رشداً ... ومنهاجاً لمن شاء اتباعا
ورب حديث خيرٍ هاج شراً ... وذكر شجاعة بعث الشجاعا

بهذه المقدمة الطويلة فى فلسفة الموت دخل على رثاء عاطف بركات . ونحن نحس أن موت عاطف بركات قد مكّن خياله المتلفت دائماً إلى الموت من الانطلاق . وكأنه نسى الميت لولا عنوان القصيدة. وأنه لم يعتزم أن يرثى ابن أخت سعد زغلول .

ونسى سعد زغلول يوم رثاه وتركه فى أكفانه والتفت إلى الأعواد التى تحمل الموتى فقال :

هـذه الأعوادُ من آدم لم ... تهد خفّاها ولم يُعثَر مطاها
نقلت خوفو ومالت بمنا ... لم يفت حياً نصيب من خطاها
يخلط العمرين شيباً وصباً ... والحياتين شقاها ورفاها

زورقٌ في الدمع يطفو أبدا عرف الضّفة إلا ماتلاها
تهلع الشكلى على آثاره فاذا خفّ بها يوماً شفاها

وكان هذا الرجل يتلمس أسباب الموت . فاذا ظفر بها سلك فجاجها ونشر أسرارها . قال في رثاء عبد الخالق ثروت الذى كان قد انفجر في رأسه عصب كان سبب موته :

رمتك في قنوات القلب فانصدعت منيّةٌ مالها قلب ولا كبد
لما أناخت على تامورك انفجرت أزكى من الورد أو من مائه الوُرد

ولمس تلك الأسباب في اسماعيل صبرى وقد مات بالذبحة الصدرية :

ذهب الذّبيح السمح مثل سميّه طُهْر المكفن طيّب الألفاف
كم بات يذبح صدره لشكاته أتراه يحسبها من الأضياف
نزلت على سَحرْ السماح ونحره وتقلّبت في أكرم الأكناف
حلّت على الصدر الرحيب وبرّحت بالكاظم الغيظ الصفوح العافى
ما كان أقسى قلبها من علّة علِقت بأرحم حبّة وشِغاف
قلب لو انتظم القلوبَ حنانُه لم يبق قاسٍ في الجوانح جاف

والأمثلة التي تؤيدنا كثيرة في شعره وحسبنا ما قدمنا لك .

كان شاعر الوطنية :

كان شوقى شاعر الوطنية الأول غير منكور ولا مدافع.

فلم يسبق لشاعر مصرى قبله أن احتفل بأحداث وطنه كما احتفل شوقى بهذه الأحداث . فأنت إذا أردت أن تؤرخ مصر فى عصرها الحديث ثم أعوزتك المراجع التاريخية ولم تعثر على شىء منها ثم رجعت إلى ديوان شوقى لأغناك . ففيه مقنع للباحث .

فمنذ ثورة ١٩١٩ إلى يوم وفاته صباح ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ لم يترك شوقى حادثاً هاماً وقع فى هذه البلاد إلا وسجله فى قصيدة معلناً رأيه فى الثناء عليه أو فى ذمه .

ذكر الثورة وزعماءها وأبطالها وضحاياها . وجماهير الشعب المساهمة فيها .

وذكر ما أنتجته الثورة من استقلال وبرلمان وأحزاب . وذكر السودان وقضيته والقناة واحتلالها . وحث على الجلاء . وبكى الفرقة بين أبناء الوطن .

ونوه بيوم ١٣ نوفمبر يوم ذهب سعد وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى إلى المندوب السامى البريطانى يطلبون الاستقلال .

ثم ذم الأحزاب فى اختلافهم وتشتت أهوائهم ومختلف أطماعهم.

كل هذا تعرض له فى شعر جليل المعنى رائع الأسلوب .

كانت الأحزاب تتهافت على تأييده لها :

لم يبخل على الوفد بالثناء ولا على حزب الأحرار الدستوريين بالإشادة بزعمائه . تألف سعد زغلول فمدحه . ثم رثى ابن أخته عاطف بركات . ولم ينس آل سعد فقال :

ولم تحوِ الكنانةُ آل سـعد أشدّ على العدا منكم ذِراعا
ولم تحمل كشيخكم المفدّى نهوضاً بالأمانة واضطلاعا
وما سـعد بمتّجر إذا ما تعرّضت الحقوق شرىً وباعا

ورثى سعيد زغلول ابن أخت سعد زغلول أيضاً . ولم يكن له من الأثر ما يستوجب الرثاء، ولكنه رثاه عزاء لخاله .

ورثى زعماء الحزب الوطنى . ومرثيته فى مصطفى كامل معروفة مشهودة . ورثى الزعيم محمد فريد وأمين الرافعى وعبد العزيز جاويش والدكتور أحمد فؤاد والصوفانى. ولم ينس المستقلين عن الأحزاب كثروت باشا وغيره ممن أبلوا فى خدمة مصر .

وفى همزيته التى نظمها فى شبابه، ذكر تاريخ مصر من عهد الفراعنة إلى العهد الحديث .

وفى الحق أن شوقى كان شاعر الوطنية الأول .

شوقى والحكمة :

شوقى كان ينشد أن يكون شاعر حكمة من الطراز الأول. ولكنه قصر فى لحوق أبى الطيب المتنبى الذى كان يلهث وراءه ليلحق غباره . فقد كان شاعره ورائده وأستاذه .

كان مفتوناً بحكمته . وقد حاول بتجاربه الفنية أن يجاريه ولكنه لم يقدر له ذلك .

كانت له أبيات حكيمة ، ولكنها لم تصل إلى تلك الحكمة الكاملة القوية فى البيت الواحد لأبى الطيب . تلك التى تهز قارئها هزاً عنيفاً وترسله وهو فى دوار .

فان شوقى لم يستطع قط أن يقول مثل هذا :

إذا ما لبست الدهر مستمتعاً به　　تخرّقتَ والملبوس لم يتخرّق

ولم يستطع أن يقول :

ومن عرف الغوانى فالغوانى　　ضياء فى بواطنها ظلام

ولم يستطع أن يقول :

وكم من عائب قولا صحيحا　　وآفته من الفهم السقيم

ولم يستطع أن يقول :

وشر ما قنصته راحتى قنص　　شُهبُ البُزاة سواء فيه والرَّخمُ

فشوقى لم يتغلغل فى أعماق الأحداث ولا فى أعماق النفس البشرية كما تغلغل فيها المتنبى بإلهام الشاعر العبقرى .

وقد كان شوقى فى كهولته يجنح إلى قول الحكمة . ويعجبه أن

يطرقها فى شعره وفى أكثر قصائده ، ولكنه لم يبلغ فيها حتى مبلغ أبى العتاهية .

ونحن لا ننكر عليه أبياتاً جيدة نظمها فى هذا الضرب من الشعر. ولكنها لا تسلكه فى شعراء الحكمة .

والعجيب العاجب فى شوقى أنه كان يريد أن يبرز فى كل فن من فنون الشعر ويصعد إلى القمة . ولكن هذه الرغبة لم يظفر بها واحد قبله ولن يظفر بها واحد بعده . ولم ولن يخلق هذا الرجل الذى عناه أبو نواس.

وليس على الله بمُستنكَر أن يجعل العالم فى واحد

كان من شعراء الإسلام الأول :

كان شوقى من شعراء الإسلام الأوائل الذين نافحوا عنه ونوهوا بالنبى صلوات الله عليه وسلامه . وأثنوا عليه فى قصائد خالدات .

كان من الشعراء الأوائل الذين أكثروا القول فى هذا المنحى من ذكر الإسلام وأبطاله .

ولعله قد قال فى الإسلام وفى نبى الإسلام أكثر من حسان بن ثابت شاعر الرسول والكميت بن زيد الأسدى ودعبل الخزاعى والأباصيرى والإمام البرعى وغيرهم من شعراء الدين .

وإن لشوقى فى محمد صلوات الله عليه قصائد تقطر عاطفة دينية صادقة . وقد أسلفت فى حديثى عن أخلاقه : أنه كان مؤمناً صادق الإيمان يحس الدين فى أعماقه .

ومن المستغرب أن شاعرنا نظم كل قصائده الدينية ومن بينها البردة وهو فى ظل شبابه وفى إبان عبثه ولهوه وكلفه بالخمر واختلافه إلى ملاعب اللهو .

ولكنه على الرغم من ذلك أخذ بأثواب البوصيرى المتعبد المنقطع إلى التأمل فى الله ورسوله حتى ساواه فى المضمار .

وكان كثيراً ما يستشهد فى شعره بأبطال الإسلام فى الشجاعة والرأى والكياسة . وقد وضع أرجوزة تنتظم أغلب تاريخ أبطال الإسلام ومواقع مجده .

شوقى والغزل :

هل كان شوقى شاعر غزل يحق له أن نسلكه فى عداد شعراء الغزل فى الشعر العربى كالمجنون وقيس لبنى وجميل بثينة . الذين عرف عنهم الرقة فى الغزل واللوعة الصادقة .

ونحن نستطيع أن نؤكد أن شوقى لم يكن شاعر غزل قط . فكل ما صدر عنه من الشعر الرقيق فى هذا الباب إنما هو وليد صنعة متقنة . ولم يكن ينبع من قلبه . إنما كان ينبع من فنه .

شوقى شاعر عظيم يحب الشعر ويولع به . فهو حين ينظم إنما ينظم مشغوفاً بالشعر نفسه . وقد أسعفه خاطر عبقرى فأجاد .

وقد حدثنى رحمه الله قائلا : إنه لم يعرف اللوعة فى الحب قط . إنما هى رغبات عاطفية كان يستعين عليها بماله ثم ينصرف عنها .

وكان لا يدخر مالا فى الوصول إلى غاياته العاطفية . ولم يعرف عنه أنه تعلق بامرأة وتدله بها .

سمعت منه يوماً وقد ذكر أمامى ممثلة جميلة تقوم بدور ليلى فى مسرحية المجنون ، قال : أنا لا أعبأ بأمثال هؤلاء ولا أتعلق بهن .

فكل ما قاله فى الغزل فى شبابه وكهولته. إنما كان شعراً جرى فيه على منهج الأقدمين فى تصدير المديح بالغزل .

ونحن لا ننكر على هذا الشاعر الكبير عاطفة الحب . فهو قد أحب . ولكنه حب القادر على الحبيب المتمكن من الوصل .

ولا يحسب القارىء أن مسرحية المجنون قد حفزه إليها عاطفة حب. إنما الذى دفعه إليها هى شهرة المجنون وتعلق العشاق به وميل الناس إلى المواقف العاطفية وحبهم لشعر الغزل .

وقد أراد أن يستعلى على المجنون كعادته فى معارضة الشعراء ولكنه فشل .

فالمجنون صادق اللوعة . وشوقى يصطنعها . ورغم ما فى هذه المسرحية من أبيات بلغت فى الرقة غاية رفيعة . غير أنها لم تبلغ مقداراً ولو يسيراً من قول المجنون :

لعمرى لقد خلّفت يا أم مالك	صدىً أينما تذهب به الريح يذهب
وإنى من ليلى الغداةَ كناظر	مع الصبح فى أعماق نجم مغرِّب

ولا من قوله هذا :

ألستَ وعدتنى يا قلب أنى	إذا ما تبتُ عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى	فما لك كلما ذُكرت تذوب

ولا من هذا :

كأن فؤادى فى مخالب طائر	إذا ذُكرت ليلى يشدّ به قبضا

هذا شعر يقوله القلب فينفذ إلى القلب . أما شعر شوقى فى مسرحيته فهو شعر يرضى عنه الذوق وكفى .

وهذه المسرحية وضعها شوقى وهو مريض فى فراشه . ولكن قدرة الرجل الفنية وعبقريته صقلتاها وأضفت عليها كذباً أشبه بالصدق . ففتن بها الناس . وأصبحت أشهر مسرحياته لقربها من منازعهم وأهوائهم .

شهدتها معه يوماً فى بنواره . فلفتنى إلى هذه الأبيات وهى فى القبلة وكان معجباً بها :

فكم قبلة ياليل فى ميْعة الصبا	وقبل الهوى ليست بذات معانى
أخذنا وأعطينا إذا البهم ترتعى	وإذ نحن خلْف البهم مستتران
ولم نك ندرى قبل ذلك ماالهوى	ولا ما يعود القلبَ من خفقان
مُنى النفس ليلى: قرّبى فاكِ من فى	كما لفّ منقاريهما غردان
نذقْ قبلة لايعرف البؤس بعدها	ولا السقم روحانا ولا الجسدان
فكل نعيم فى الحياة وغبطة	على شفتينا حين تلتقيان
ويخفق صدرانا خفوقاً كأنمـــا	مع القلب قلب فى الجوانح ثانى

ويشهد عزيز أباظة وعبد الرحمن الجديلى وتوفيق دياب هذه المسرحية معه فى بنواره . فيعجب عزيز بهذا الشعر الرقيق ويستزيد الشاعر منه فى مسرحية أخرى يسميها له . مشيداً بمواقفها المسرحية. فيلتفت الشاعر إلى خليفته . وينظر بعين الغد ويقول : ستنظمها أنت . وتصح النبوءة وينظم عزيز : مسرحية قيس ولبنى .

وبراعة هذا الرجل لا تقف عند حد . فهو حين يذكر جارة الوادى التى لم يرها قط ولم يحس بها . نلمس نحن أنه كان عاشقاً حقاً لهذه الجارة وأنه كان يلقاها حيال الربوة .

وهذا البيت البديع الذى قرن الزمن بلقاء حبيبته :

ما أمس من عمر الزمان ولا غد	جُمع الزمان فكان يوم لقـــاك

يجعلنا نحنى رؤوسنا إجلالا لهذا التصوير الفريد .

وشوقى يستحق هذا الوصف الذى أطلقه أحد النقاد على أحد مغنى الدولة العباسية قال : إنما هو زق عسل إذا خرقت أى جنب من جوانبه سال عسلا .

مسرحياته :

كان شوقى يعتقد أنه كشاعر كبير لا يمكن أن يضمن الخلود لنفسه إلا بمسرحيات يقدمها للمسرح .

وإن شكسبير وفولتير وموليير وغيرهم من شعراء المسرح : إنما خلدتهم مسرحياتهم وليس قصائدهم .

فما كاد يقر فى نفسه هذا الاعتقاد حتى انكب على هذا النوع من الأدب .

فوضع مسرحية كليوباترا ، ومجنون ليلى . وقمبيز . وعلى بك الكبير . وعنترة . والبخيلة . والسيدة هدى .

فلم يحفل المسرح المصرى فى حياة شوقى إلا باثنتين : المجنون وكليوباترا . والباقى ذهب مع الريح بعد حفلات قليلة من تقديمها .

وكان غير موفق من ناحية الفكر فى موضوع ثلاث مسرحيات من مسرحياته : وهى كليوباترا . وقمبيز وعلى بك الكبير . فان موضوعها كان يرمز إلى ذل مصر .

ولا شك أنه كان سليم القصد فى هذا . ولكن تطلعه إلى أضواء كليوباتره ومشاهدته للمسرحية التى كان يلعب فيها صديقه عبد الوهاب والتى كان اسمها كليوباتره ومارك أنطوان . كل هذا دفعه إلى وضع هذه المسرحية . كذلك مسرحية قمبيز : الدافع إليها ذكره لقمبيز فى همزيته التى

قالها فى أعمال المؤتمر المشرقى الدولى الذى انعقد فى مدينة جنيف فى ديسمبر سنة ١٨٩٦ والتى قال فيها :

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيز ولا طنطنت بك الأنباء
دارت الدائرات فيك ونالت هذه الأمة اليد السوداء

ثم ذكر فرعون وذله . ومشى بنت فرعون فى السلاسل . ونكد البلاد وشقائها . وقد نال من نفسه هذا البغى فوضع مسرحيته . ولكنه كان اختياراً غير موفق .

كذلك على بك الكبير : المحرض على تأليفها ظلم المماليك واستهانتهم بالمصريين وترفهم وإسرافهم .

وقد وضع هذه المسرحية فى شبابه . ثم عاد إليها فى كهولته وصقلها وزاد فيها وقدمها إلى المسرح .

ولقد رمى فى وضع مسرحية عنترة إلى الناحية الشعبية لشهرة عنترة فى الشجاعة . هذه الشهرة التى عمت الجماهير . فشخصية عنترة لا تخفى على أحد فى الشرق العربى كله .

ولكن تقديره فى وضع هذه المسرحية كان خاطئاً . فانه لم يقدر لها البقاء طويلا . لأن المثقفين من الجماهير لم يطربوا لها طرباً فنياً . والجماهير من السوقة لم ترتفع ثقافتهم إلى تفهم هذا الشعر الرفيع .

والمجنون : نظمها لشهرة هذا الشاعر الولهان المعروف والمضروب مثلا فى الصبابة واللوعة . وقد أسلفت ذلك .

والسيدة هدى والبخيلة : مسرحيتان قصيرتان من فصل واحد .

ألفهما لمعرفته وشغفه بحياة المنزل التركى القديم . وهما يميلان للفكاهة.

وكان بقاء هذه المسرحيات مرهوناً ببقائه . فانها لم تلبث أن انطوت بعد موته إلا مسرحية المجنون؛ فقد قدر لها البعث الفترة بعد الفترة .

ولعل ذلك منصرفه إلى ولع الناس بهذه العاطفة المتجددة فى كل الأزمان ولهج القلوب بها . فالحب باق ما بقى الجنس .

ونحن لا نستطيع أن نقول إن ما ورد فى هذه المسرحيات من الشعر إنما هو شعر قصص وحسب .

وكيف نقول هذا وهو شعر شوقى الخالد . شعر هذا الشاعر الذى كان يسيل شعراً مطبوعاً خالداً .

وشوقى حين ينظم الشعر إنما كان يريق نفسه فى تضاعيف أبياته . كان يضع خلجات نفسه فى كل ما ينظم حتى لو كان فى الرثاء . وكانت الخلجات فى مناح ترف بهجة وسروراً .

كان لا يستطيع أن يقاوم موهبته الخالدة . فهى آمرة ناهية . وكان لهذه الموهبة متسع رحيب فى تلك المسرحيات الشوقية . وقد مكنته هذه المسرحيات من الانطلاق إلى أوسع مدى فى العبقرية . لم تتجه إليه القصائد المفردة لموضوعاتها المحدودة بأغراض .

وعندى أنه كان ينقص هذه المسرحيات الفن المسرحى العريق والحبكة المسرحية . رغم أنه كان يستعين بالمرحوم عزيز عيد وغيره من علماء المسرح .

ولكن الاستعانة بالغير فى الفن لا تقوم أبداً مقام الطبع والموهبة .

كيف كان ينظم الشعر ؟

كان له همهمة وغمغمة تسمعهما إذا جالسته . وإذا كنت لاتعرف هذا الرجل القصير النحيل أنه شوقى الشاعر الخالد . تيقنت أن صاحب هذه الهمهمة وتلك الغمغمة إنما هو صائغ ألحان يديرها على لسانه مكتومة ، ليقيمها نغماً صحيحاً لا يخرج عن الوحدة كما يقولون .

ومن عادة هذا الملحن : رفع يده الدقيقة الأصابع الصغيرة الحجم إلى جبينه ومسح هذا الجبين فى تؤدة وحذر . كأنه يتحسس بها بثوراً ناتئة يريحه مسحها والمر عليها .

وإن كنت ممن يجهل هذه العادة ويستنكر هذه الغمغمة وتلك الهمهمة ، وحسبت انك تجالس رجلا تستطيع أن تحادثه وتستشيره فى أمورك ، فأنت فى وهم واهم .

فالرجل بعيد بكيانه كله عنك . لا يحس شخصك . ولا يرى سوادك . ولكنك إذا ألححت فى لفته إليك . وقرع صوتك أذنه وآذاها . التفت إليك كارها وحزر أنك تخاطبه . فعند ذلك يحتم عليه أدبه أن يجيبك بجواب . ولكنه جواب بعيد بعد القطبين عن سؤالك . لأنه مستغرق بكيانه كله فى نفسه استغراقاً لا يترك له الافلات لحظة قصيرة للاندماج فى دنيا الناس .

وإذا استعصى عليه معنى نافر أراد اقتناصه وترويضه ليستقيم لفظه مع روى قصيدته . هب مذعوراً وخلف جلساءه بغير تحية أو اعتذار وخرج كأنه هارب من طلب .

وقد ترك عمله هذا فى نفوس جلسائه مرارة وألماً فقد طالما ظنوا أنه يتعمد إهمالهم والاستهانة بهم .

وقد حدثنى بهذا عالم من علماء المشرق قال : ان شوقى عظيم فى شعره ولكنه لا يصاحب ولا يعرف أقدار الناس ولا يقدر أدب المجلس كأنه بدوى غير متحضر .

وكان إذا أفلت من مجلسه وترك جلساءه من غير نظرة . طاف على قدميه بمقدار ما يروض هذا المعنى ، حتى إذا استقاد له . رجع وأملى على كاتبه أبياتاً من قصيدته المنوية . ثم انصرف إلى الجلوس ثم إلى الهروب . هكذا دواليك حتى تتم القصيدة .

وكان يملى على الكاتب أبياتاً . ثم يعود ويملى هذه الأبيات نفسها . ولكن باختلاف فى بعض معانيها . حتى تستقيم القصيدة فيختار من هذه النسخ ما يرضى ذوقه ، فيقره ثم ينشره على الناس .

لم يسمع مخلوقاً قط شعره قبل نشره :

ومن مألوفه أنه لم يسمع مخلوقاً شعره قبل أن يخرجه إلى الناس . وهو فى ذلك نقيض لحافظ ؛ الذى كان إذا فرغ من بيت شعر واحد طاف به على الأدباء يسمعهم إياه .

ولم يشذ شوقى عن هذه العادة إلا فى مسرحياته . فهاهنا كان يجمع خاصة أصدقائه من المثقفين على مائدته . حتى إذا فرغوا من طعامهم . أعطانى المسرحية أقرأها عليهم .

وكان يتوخى من ذلك نقد مواقف المسرحية من التمثيل وصحتها منه.

ولم يرد عرض الشعر قط . لأنه كان واثقاً من ذوقه الخاص فى شعره .

وقد ورطته تلك العادة فى أغلاط لغوية وفنية ألحقت به كثيراً من النقد . كان يستطيع تلافيها إذا أسمع غيره شعره قبل نشره فالمستشير معان .

وحدث أنه أخطأ فى قافية قصيدة من قصائده، فحدثته عن نقد الناس له فى ذلك ، فغضب وقال : أنا أجدد . فسكت خوفاً من أعاصيره وكنت عليما بها .

كان ينسى شرح ما نظمه :

وربما نظم القصيدة فينسى معنى كلماتها اللغوية بعد حين من الدهر.

ذهبت مرة إلى مشرب للشاى كنا نتردد عليه . فألفيته يجالس الظريف الأديب محمـــد البابلى، وكانا فى شبه حوار لم أتعرفه حتى جلست معهما .

فقد كان محمد البابلى يقرأ عليه سينية الأندلس . وإذا به ضيق الصدر كعادته إذا حدثه أحد فى شعره للتقصى والمعرفة . ولكنه لا يستطيع التبرم الظاهر بمحمد البابلى . فهذا رجل لا يصطلى بناره . فسلاحه ماض باتر لاذع . وشوقى يعلم عنه سرعة النكتة وإصابة هدفها . فكره أن يعامله كغيره وينصرف عنه هارباً كعادته .

فلما جلست بينهما . تلقفنى كما يتلقف الغريق العود الطافى وقال : أهو الجدع ده يعرف القصيدة ومعناها .

فلم يفلته البابلى فقال : يا شيخ أمّال انت صنعتك إيه . فضحك

شوقى . ثم سعل البابلى . فأراد أن يدور بالحديث إلى وجهة أخرى . قال : الكحة دى من زمان عندك يا محمد بك . فأجاب البابلى فى نكتة لطيفة : دى أول بختى .

وأعاده البابلى إلى حديث القصيدة السينية التى كان يحمل نسخة منها فى يده ويقرأها عليه . وقد أبى أن يتخذنى بديلا منه استصغاراً لشأنى .

فاستسلم شوقى وأخذ يتعثر فى شرح القصيدة . فتذكرت كلمة فولتير التى قالها : إنى عندما أكتب أحس أن إنساناً آخر جاء يكتب عنى .

فما زالا فى حوار وتفسير حتى جاء هذا البيت :

غشيت ساحة المحيط وغطت   لجة الروم من شراع وقلس

فهنا غرقت سفينة شوقى .

كل هذا وأنا صامت لا أتكلم خوفاً من البابلى الذى لقيت منه الويل من عهد قريب جداً .

فقد أبصرنى سائراً فى العتبة الخضراء . وكان يركب عربة خيل . فاستوقف السائق ونادانى وقال : اركب . فركبت بجانبه حتى مكتب البريد العام . ثم نزلنا فاذا به يجرنى من يدى جراً عنيفاً إلى نافذة جلس خلفها رجل بريد . وإذا بالبابلى يصيح فيه — وقد أخرج ورقة صفراء تبينتها فكانت إذن بريد لقبض دراهم —: أهو واحد يعرفنى ياسيدى . فابتسم رجل البريد وقال : ما أعرفوش يا حضرة . فصاح فيه البابلى غاضباً : يا أخى حيرتنى عيال ما هم نافعين رجاله ما هم نافعين.

فدهشت وقلت : إيه الحكاية يا محمد بك . فضحك وجرنى من يدى حتى ركبنا العربة ثانية وذهبنا إلى المقهى .

تذكرت هذه القصة الحديثة الوقوع فأمسكت عن التدخل . ولكن لما غرقت سفينة شوقى عند كلمة : القلس . ولم يستطع تفسيرها . وقال : هو شيء فى السفينة . فألح البابلى عن اسم هذا الشيء .

فتململ شوقى وضاقت أخلاقه . فخفت أن تقع كارثة . فقلت : القلس : حبل للسفينة .

فنظر إلى البابلى ونظر إليه . وضحك وضحكنا جميعاً .

كان ينسى قصائده :

كنت أسايره بجوار حديقة الأزبكية . فاذا بالأستاذ فهيم قنديل صاحب صحيفة عكاظ الأسبوعية . وهى من الصحف الصفراء كما قرأت .

وكان الشيخ ينشر له كل أسبوع قصيدة من قديم منظومه .

وحدث أنه أخطأ فنشر قصيدة فى ذكرى بعلبك للأستاذ الكريم خليل مطران ونسبها لشوقى . وكانت هذه القصيدة من أجود شعر مطران وأكثره ذيوعاً .

فلما التقينا بالشيخ . تذكرت أنه نشر فى صحيفته صبيحة اليوم هذه القصيدة منسوبة إلى شوقى فقلت له :

يا أستاذ فهيم : ان القصيدة التى نشرتها اليوم . هى قصيدة مطران فغضب الشيخ – وكان يجيد التهكم والطعن باللسان – وصاح انت

تعرف إيه . هو مطران المعقـــد يقول هـــذا الشعر السلس البين .

فاستغثت بشوقى وهو الشاهد الفصل . وقلت يا باشا : انت ليك قصيدة فى ذكرى بعلبك فرفع إلى عينه اليسرى وابتسم ابتسامة ماكرة وقال : لاأعرف أنا نظمت كثيراً . فانتصر الشيخ وزاد طغيانه وقذفنى بالجهل والفضول فاستخذيت ، وإذا بشوقى يأخذ بكمى وننصرف عن الشيخ . وإذا بى أقول : بقى يا باشا دى قصيدتك .

فضحك وقال : ياأخى انت مفلوق ليه . أهى راحت على مطران .

ولكن إخواننا اللبنانيين . لم يرضوا بهذا . فقد أرسلوا إلى الشيخ بالكتب طالبين تصحيح هذا الخطأ . فلم يستطع الأستاذ الفكاك من هذه الاحتجاجات المنهالة عليه وصحح خطأه . ثم جاءنى رحمه الله إلى دار الكتب معتذراً عن إساءته إلىّ .

وكان على سعة اطلاعه فى الشعر العربى القديم . لا يكاد يستشهد بشىء منه . وإذا استشهد ببيت شعر من القدماء قاله مغلوطاً . وربما استشهد بالشعر الغث . فقد طالما كان يردد هذا البيت المتهافت الضعيف :

إذا كنتَ فى مصر ولم تكن ساكنا على نيلها الجارى فما أنت فى مصر

وكان يعجبه هذا الاستشهاد . لأن كرمة ابن هانىء تطل على النيل.

وكان إذا نطق بالشعر حاذر واحترس واتخذ لسانه نبرة الخطابة وتلعثم وتعثر فى سبيل النحو. ولهذا لم يقم فى محفل خطيباً قط. ولم يلق شعره قط . بل كان يتخير المفوهين من الخطباء فيلقى إليهم بشعره لإلقائه فى المحافل .

مع شعراء عصره :

قد أفردت له باباً مع حافظ ابراهيم. فليس لى أن أتعرض لحافظ هنا .

مع البـارودى :

عاصر شوقى البارودى . وهو أستاذ هذه المدرسة الحديثة ومعيد شباب الشعر العربى الفخم . فهو الأب الأكبر كما كانوا يقولون عن الفرزدق .

ولا شك أن شوقى أفاد من البارودى فائدة جلى . فهو الذى أعاد الطريق واضحاً بعد أن تراكم عليه الغث والتافه والمرذول والركيك .

والفنون عدوى . فلو لم يظهر البارودى ويرفع اللواء لضل شعراء مصر السبيل فى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

والبارودى : كان شاعر ديباجة من الصنف الأول والشعر العربى. إذا تعرى من الديباجة الرصينة الجزلة ، لم تنفعه المعانى وان سمت أغراضها وتعالت مقاصدها .

فالثوب البراق وان بخس نسجه . أبهى فى العين من الثوب الثمين ان فقد بهاءه وحال لونه .

فالبارودى رحمه الله : له المنة العظمى على هؤلاء الشعراء جميعاً .

مع اسماعيل صبرى :

كان يعرف لاسماعيل صبرى قدره ويشهد له بالرقة . ويتأدب فيجعله فى مكانة أستاذه . ولم يكتم هذه العاطفة . فقد ذكرها فى رثائه له قال :

أيام أمرح فى غبارك ناشئاً   نهج المهار على غبار خصاف[1]

وقد وضح تقدير شوقى لاسماعيل صبرى وحبه فى رثائه العظيم له فان هذا الرثاء أبلغ رثاء قاله وأعمق عاطفة .

شوقى ومطران :

كان شوقى يألف مطران ويألفه مطران . كانا صديقين . وان أدب مطران وكريم خلقه جعلاه صديق الجميع .

وكان رحمه الله عف اللسان . لم ينل أحـــداً من الشعراء بعيب فى محضره ولا فى مغيبه .

يسمع شعر الجميع ويعجب بشعر الجميع ويتألف الجميع ويعاون الجميع ما أمكنته المعاونة .

كنت تراه صديق المرحوم ابراهيم الدباغ . وإمام العبد . وأحمد نسيم . وحافظ ابراهيم . وأحمد محرم . وعبد الحليم المصرى .

وقد قدم شوقى على هؤلاء جميعاً فى رسالة كتبها عن الشعراء جاء فيها :

إذا أراد معنى جاء على مرامه وعلى أكثر من مرامه .

وقد حفظ له شوقى هذا الرأى فيه فاختصه بوده . حتى أنه لما طبع ديوانه الشوقيات الأول . طرح كل التقاريظ المرسلة إليه . ولم يثبت إلا قصيدتين لاسماعيل صبرى ومطران . وقال فى تقديمهما :

وردت إلينا التقاريظ تترى من كبار الشعراء ومشاهير الكتاب بين أصدقائنا فى مصر والشام . إلا أننا رأينا أن نحفظها شاكرين الصنع ذاكرين الجميل . وأن نكتفى منها بقصيدتين غراوين إحداهما من نظم

---

(١) جواد عربى أصيل .

أستاذنا وصديقنا الحميم صاحب السعادة اسماعيل صبرى ، والثانية من قلم خليل مطران .

وكان شوقى يحب مداعبة مطران . وكان مطران يعجب بالجمال . وله صديقات كثيرات من فضليات اللبنانيات والأجنبيات . وكان ربما صحبهن إلى المشارب العامة والمنتديات .

بصر به شوقى يوماً داخلا مشرب صولت . وكان بصحبته غادة هيفاء فائقة الحسن فناداه فجاء وسلم . وكان شوقى يغار من الشيوخ المتصابين المغرمين .

قال : يا خليل بك انت لسه ما همدتش . فضحك مطران وكان كيساً لبيباً وقال :

إنما اصطحبتها لأدلها على على ابنك . فضحك شوقى وقال : اطلع من دول .

وفى يوم كنت أصحبه مع حافظ ابراهيم فى عربته وكان طريقنا كرمته للغداء . فبصرنا بمطران فاستوقف السائق ونادى مطران وأركبه معنا ودعاه للغداء . فاعتذر بأنه يبكر بغدائه وقد تناوله آنفاً . ولكنه يسره أن يشارك فى تناول الفاكهة معنا .

فلما جلسنا إلى المائدة ،وأعقبت الفاكهة الطعام ،شاركنا مطران فأكثر منها . فلم يفلته حافظ من نكاته فقد قال له : ياخويا كنت كلت طبيخ كان أحسن لنا .

شوقى وبقية الشعراء :

أما بقية معاصريه من الشعراء ، فلم يكونوا يلمون به إلا قليلا. وكان يضيق بهم . وكانوا حريصين على زيارته ، ولكنه كما قلت : كان يكره حديث الشعر فى مجلسه وقليلا ما يتكلم فيه .

فلم يجرؤ واحد منهم أن يسمعه قصيدة من نظمه لأنهم يعلمون تبرمه بذلك .

ولكنهم كانوا يسرهم أن يجلسوا إلى أميرهم وكفى .

وكان شوقى له بعض الأيادى على هؤلاء . فطالما أعطى المحتاج منهم . وكان كثيراً ما يفعل .

ذلك فى عصر الشباب. والمال كثير وافر متدفق فى ظل عباس الثانى وفى عصر الشراب . والخمر توعز بالكرم . وقد أمسك عنهم يده فى كهولته بعد رجوعه من المنفى إلا قليلا نادراً .

وكان من عادة هؤلاء الشعراء أن يتقدموا بقصائد فى عيدى الميلاد والجلوس للخديو بالتهنئة .فكان شوقى يمشى إلى الخاصة الخديوية فى دفع جوائز لهم .

كان يتعنى فى شعره :

كان هذا الشاعر الفذ الطائر الصوت يتعنى أشد العناء فى الترويج لشعره .

كان جاهلا أن الصحيفة التى تحمل قصيدته تلقى من الرواج. ما يجعلها تتهافت على هذا الشعر دون سعى منه . فقد كانت سوق الشعر نافقة فى عهده .

كان الطلبة فى جميع مراحلهم الدراسية : يتلقفون شعره المنشور فى لهفة ورغبة . وكان الموظفون يتسابقون إلى قراءته . وكذلك كان يفعل غيرهم من طوائف الناس .

كان اسمه يدوى . وكان شعره منية القلوب والعقول . وقد فتر الآن حب الشعر فى النفوس وأصبح الناس لا يعنون به . وإنما غرضهم أدب سهل لين يهدف إلى الجريمة والجنس .

وقد صدق على شوقى والد شوقى يوم كتب وصيته على أوراق ابنه المحفوظة عنده ، فى هذه الكلمات :

هذا ما تيسر جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوربا فكنت كأنى أراه . وانى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدى من يعتنى بشؤونه . وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب .

لقد صدق فى الشطر الأخير من نبوءته . فلم يوجد بعد شوقى من يعنى بالشعر ولكنه وهم فى الشطر الأول . فهذا ابنه فى فؤاد التاريخ يعنى بشؤونه .

ثقافته الشعرية :

ان قراءته الدائمة ونظره الطويل فى الكتب القديمة والحديثة . تركت فى نفسه رواسب من المعرفة اجترها فضمنها نظمه .

فكان يجهد قارئه فى التعرف على تضميناته العلمية أو التاريخية . فلم يتيسر لغير المثقفين ثقافة عاليـــة متابعته والفهم عنه . وسأورد مثلين للدلالة على قولى هذا . قال فى قصيدة توت عنخ آمون :

والعـــلم يَدْرِىّ أحــــــل لأهله ما يصنعون

وكلمة بدرى فى البيت تنصرف إلى قصة حاطب بن أبى بَلْتَعة الصحابى مع النبى صلوات الله عليه .

فقد أراد عليه السلام غزو مكة ، فكتم أمر الغزو عن قريش ليفاجئهم .

ولكن حاطباً بعث إلى قريش ينبئهم بهذا الغزو مع امرأة جعلها رسوله .

فعلم النبى بالخبر فبعث على بن أبى طالب فى اثر المرأة حتى جاء بالكتاب الذى أرسله حاطب إلى قريش يحذرهم فيه .

وأحضر النبى حاطباً وعاتبه . فاعتذر الرجل بأنه مؤمن وانه لم يشك فى الإسلام قط . وإنما فعل ذلك ليتألف قريشاً لمال له بمكة . فانبرى عمر بن الخطاب يستأذن النبى فى قتله . فنظر النبى الكريم إلى عمر وقال :

وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما تشاءون فانى غافر لكم . وكان الرجل من أهل بدر .

فاستوعب شوقى هذه النبذة التاريخية وأودعها شعره فى الغرض المناسب .

والمثل الثانى : جاء فى بيت له فى قصيدة رثى بها عمر المختار قال :

وافاه مرفوع الجبين كأنه سقراط جر إلى القضاة رداء

ولا شك أن كثيراً من الناس لا يعلمون أن سقراط الفيلسوف اليونانى العظيم حوكم أمام قضاة متعصبين حكموا عليه بالموت ، فشرب السم ومات .

والأمثلة كثيرة يعرفها قراوءه . فمما أعرفه عنه انه كان يقرأ كل كتاب تخرجه المطابع سواء كان موءلفاً أو مترجماً لكاتب قديم أو محدث . وهذا لشغفه بالمعرفة وحبه فى الاطلاع . فهو يقرأ فى كتب الطب والفقه والحديث والعلوم والجغرافيا والأدب. وكل ضروب المعرفة .ولكنه لم يقرأ منذ رجوعه من المنفى كتاباً بلغة أجنبية قط .

غرامه باللغة :

وكان هذا الشاعر إذا أعوزه لفظ لقافية فى قصيدة . طلب إلى — إذا كنت جالساً معه فى المكتب — أن أبحث له فى المعاجم اللغوية الموضوعة دائماً هناك عن اشتقاق اللفظ المقصود . فكنت غالباً ما أعثر على الاشتقاق اللغوى كما استنبطه . فان ذوقه اللغوى كان له بمثابة الإلهام .

وكان يعجبه أن يكون وافر المحصول من مفردات اللغة العربية. فقد بلغ فى ذلك حظاً عظيما لكثرة نظره فى دواوين الفحول من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمحدثين، وكتب الأدب الرفيعة كالحيوان للجاحظ والأغانى والكامل للمبرد والأمالى للقالى .

جالسته يوماً فى صولت الحلوانى وكنا منفردين : فقال : هل أنت مفلس . فدهشت لهذا السوءال لأنى لم أسأله مالا قط . وكنت حريصاً على ذلك . لأن كرامتى كانت تأبى على مهما خلت يداى من المال أن أسأله مالا . إلا ما قدمت للقارىء فى حادثة موت أبى .

فانى لو سألته مالا لما دامت مودتنا اثنى عشر عاماً .

وأنى لا أكذب القارىء، فقد حدث أنه كان يقوم بطبع ديوانه .

وكان قد أسند تصحيح الجزء الأول إلى أحد الأدباء . وجعل له على ذلك أجراً شهرياً معلوماً .

فلما ظهر الجزء الأول، وقعت فيه أغلاط كثيرة فى شرح المعانى وضبط الكلمات .

وكان لكسله لا يراجع على المصحح تجارب المطبعة . فلما وقف على هذه الأغلاط غضب . وطلب إلى أن أقف على تصحيح الجزء الثانى مع مشاركة نجله على شوقى مدير المراسم الآن بوزارة الخارجية. وهو صديقى وكنا لا نفترق .

وقد أراد بهذا أن يكسب ابنه معرفة أدبية ولغوية . وقد قدر أن التصحيح سيكون تحت إشرافه وقريب منه . فنستطيع أن نسأله ونستوضحه ما غمض علينا من معانى شعره .

فرحبت سعيداً أن أنهض له بهذا العمل . فعرض على أن يعطينى ما كان يعطيه للأديب الأول . فرفضت وقلت : يا باشا إنما أنا وعلى سنقوم بهذا العمل . وأنا كل يوم هنا فى المكتب وهو مستقرئ وأنا كولدك . فأبى إلا أن أؤجر على هذا التصحيح فرضيت .

وبدأنا العمل . وكان قد وضع قصة غانية الأندلس أيام نفيه فى اسبانيا . وسجلها فى أوراق دشتت وشوشت . ضل فيها هو وذلك الأديب فى ترتيبها . فجاء بها وهى لا أول لها ولا آخر . وقد تجاوزت الثلاثمائة ورقة وقال : ستكون بطلا لو نظمت هذه الأوراق وأرجعتها قصة متتابعة الصفحات .

فنظرت فى هذا الدشت الرهيب وتمثل عجزى عن إعادة هذه الأوراق إلى نظامها .

ولكنى لم أكد أنظر فى هذه الأوراق حتى أبصرت بالفرج فى ذيل الصحف ، فقد رأيتها معقبة ، أعنى أن أول كلمة فى الصحيفة مكتوبة فى ذيل الصحيفة السابقة لها . وقد نسى هو ذلك . وقد كتمت هذا الاكتشاف لاستغلاله فى إظهار براعتى المزيفة .

فلما رأى هذه القصة الضائعة تعود إلى الظهور سر سروراً عظيما وقال : لو كنت أعلم انك بهذه البراعة لأبقيت على أوراق كثيرة حرقتها لعجزى عن ضمها وترتيبها .

فقلت : حقاً يا باشا ان حرق هذه الأوراق خسارة للأدب العربى . ويعلم الله انى مشوش الرأس واليد لا أستطيع أن أهتدى إلى شىء مارسته مراراً إلا بالسؤال كأنى لم أباشره قط . حتى البيت الذى زرته مراراً لا أهتدى إليه إلا بالسؤال عنه .

ولكنى خشيت أنى إذا صارحته بالحقيقة هزأ منى ونقصنى وعابنى . فلما استكملنا شهراً . إذا به يدس فى يدى قدراً من المال . فاستحييت أن أنظر فيه أمامه . ولكنى لما خلوت إلى نفسى نظرت فى هذا القدر فاذا هو دون ما كان يعطيه للأديب المذكور .

فأحسست بالإهانة والغضب معاً . وكرهت أن أرد عليه ماله كأنى أماكسه . وهذا ظرف دقيق يخجلنى التورط فيه . فرأيت أن أتخلف عن العمل وعن الاختلاف إلى مكتبه .

فافتقدنى يومين . ثم طلب إلى زميلى على أن يستفسر منى عن

علة تخلفى . فحادثنى بالتليفون سائلا عن السبب . فقلت : انى مشغول ولا أستطيع متابعة العمل فى الديوان . فتولى هو سؤالى وعاتبنى . فقلت : هل أستطيع الحديث معك بصراحة ؟ قال : طبعاً. قلت. انك عرضت العمل علىّ فى الديوان وهذا شرف لى . ولما أردت أن تؤجرنى عليه قلت لك : إنى كأحد أولادك وان مكتبك مستقرى كل يوم فأنا لا أتكلف مشقة . ولكنك أصررت على أن أتقاضى أجراً على هذا العمل . وقد قدرته أنت فلما نقصت منه ، رأيت إن هذه إهانة لحقتنى ووقر فى نفسى هوانى عليك فلهذا امتنعت .

فاعتذر إلى بعذر لبق . وألح على فى الحضور إلى المكتب عصر اليوم . فقلت على أن أعمل بغير أجر . فقال : سنتكلم فى هذا عند حضورك .

فلما جئت المكتب وجدته فى انتظارى . وكان هناك ولداه . فلما بصر بى أخذ بيدى وتأبط ذراعى وخرجنا . فلما أخذنا سبيلنا قال : انت ابنى وأنا أقدرك ثم دس فى يدى قدراً من المال .

فأبيت أن آخذه فأقسم . فأخذته . ثم كر راجعاً بى إلى المكتب وأمر علياً أن نبدأ العمل ففعلنا .

فلما عدت إلى بيتى نظرت فى المال فكان فوق ما قدره لى قبل ذلك .

ولا ينسينى هـــذا الاستطراد الحديث عن شغفه باللغة العربية. فلما قال : انت مفلس؟ قلت : نعم لأسبر غوره . فأخرج جنيهاً وقال : هو لك على أن تفسر لى كلمة تبع فقلت : هو اسم كان يطلق على

ملوك اليمن قديماً . فقال : هذا من معانى الكلمة . إنما أردت أصل المعنى لهذه الكلمة . فقلت : لا أعرفه . فأرجع الحنيه إلى جيبه وقال : هو يعسوب النحل . أى الذكر الأعظم للنحل .

فضحكت وقلت : انى مفلس . قال : حسبك أن تعلم شيئاً لم تكن تعرفه .

وانه لم يضع كتابه المنثور المسجوع الذى سماه (بأطواق الذهب) إلا ليظهر براعته اللغوية وليطلع الناس على واسع معرفته بهذه اللغة .

رأيه فى الشعراء والأدباء :

لم أسمعه يذكر شاعراً قط إلا المتنبى . وكان يفضله على سائر الشعراء كما أسلفت . وذكر مرة الجاحظ فنال منه . فدهشت وقلت : هذا سيد أدباء العربية فقال : لا ، ولاحت على وجهه ظلال الغيرة من الرجل . فعجبت لغيرته من كاتب وهو شاعر .

رأى الشعراء والأدباء فيه :

كان يقول على الصحف التى تهاجمه . إنما هؤلاء الكتاب يجدون ورقاً وحبراً .

وقد وضح رأى الأدباء والشعراء فيه يوم أقيم ذلك المهرجان لتكريمه سنة ١٩٢٦ الذى ظل قائماً أسبوعاً كاملا .

حضره أعلام الأدباء والشعراء من جميع الأقطار العربية . وقد قدمه جميعهم فى قصائدهم ومقالاتهم . واعترفوا بفضله على الشعر العربى . وكان سعيداً طيلة هذا الأسبوع .

حتى أنه حادثنى بالتليفون . يطلب إلى الحضور مع حافظ ابراهيم للنزهة إلى القناطر الخيرية .

وكان من البرنامج الموضوع للضيوف الوافدين : ركوب باخرة إلى القناطر الخيرية . فأنهيت إلى حافظ حديثه معى ، فقبل مسروراً. وقد أمضينا لحظات ناعمة فى هذه الرحلة السعيدة .

رأى الدكتور طه حسين فيه :

لم يتضح رأى الدكتور طه حسين فى شوقى قط. فقد كان غامضاً ! وقد هاجمه بالنقد فى شبابه ثم عقد محاضرة لنقد تمثيلياته فى جمعية الشبان المسيحية . ثم فضل عليه أحمد نسيم يوم أخرج الأستاذ الخليل لطفى السيد كتاب أرسطو فى الأخلاق ، الذى امتدحه شوقى وحافظ ونسيم . فقدم طه حسين نسيما على صاحبيه . كما قال .

ثم رجع بعد ذلك يثنى على مكانته الشعرية . وكان شوقى وحافظ حريصين على أن يتبينا رأى طه حسين فيهما لخطره عندهما .

والأستاذ العقاد رأيه فيه معروف . فقد أنشأ فيه كتاباً سماه الديوان . كله نقد لاذع فى شعره .

وقد وضحت نيته فى هذا يوم بايعه الدكتور طه حسين ولقبه بأمير الشعراء بعد موت شوقى . وللقارىء أن يستنبط من هذا ما يشاء .

والأستاذ المازنى رحمه الله . كان خصما قديماً لشعره ثم رجع بعد ذلك صديقاً لهذا الشعر وقد اعترف بخطئه فى عداوة شعر شوقى .

وكان يجلس معى فى مقهى الرتز أمام البنك الأهلى وكان رقيقاً

ظريفاً . وكنت أسمعه يستشهد بشعر شوقى . وكان مفتوناً بهذا البيت ويكثر من ترديده :

وللحريّة الحمـــراء باب بكل يدٍ مخضّبة تُدقُ

والمازنى رجل أسلوب وذوق فنى رفيع .

والشاعران الرقيقان : الأستاذان عزيز أباظه وأحمد رامى يفضلانه على جميع شعراء العربية وقد قلت هذا .

وكان الأستاذ الشيخ عبد المطلب الشاعر ، يعترف له بالامارة ويحفظ كثيراً من شعره .

وكان الأستاذ أحمد نسيم الشاعر مفتوناً به ، وكان يقول لى بعد موته : أين سيذهب هذا الشعر الذى كان يلم بهذا الرأس العبقرى .

وكان الأستاذ أحمد الزين : راويته . وكان شوقى يعلم هذا عنه ويحبه كما كان يحب كل رواة شعره ويثنى عليهم .

وقد كان أحمد الزين صديقى . وكان قد حيكت مؤامرة لإخراجه من دار الكتب المصرية .

فأسرعت إلى شوقى . وقلت : راويتك وتلميذك أحمد الزين يسعون فى فصله عن دار الكتب .

فغضب له ، وهرول إلى المرحوم عبدالفتاح صبرى وكان صديقه ووكيلا لوزارة المعارف فشهد له بالأدب والموهبة وفضح المؤامرة المبيتة له.

فلم يستطع عبد الفتاح صبرى أن يرد مسعاه خائباً . وتحدث إلى الأستاذ أسعد براده وكان مديراً لدار الكتب المصرية يومئذ . وطلب إليه ألا يمس أحمد الزين .

وقد قال لى : عجبت من هذا البلد الذى لا يرعى حقاً لكفيف ولا واجباً لضعيف .

وقد كان رأس هذه المؤامرة : رجل الانساب غفر الله له إحسانه لفاروق واساءته إلى الزين .

والأستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى : كان يضعه فى المكان الأول من شعراء العربية . وقد قال فى وصفه : شاعر الماء والهواء والغابة الفيحاء.

والأستاذ أنطون الجميل : دبج فى شعره رسالة وقف فيها على محاسن هذا الشعر ونوه به وطرب منه وأطرب الناس .

وكان رأى الأستاذ محمد الهيهاوى فيه عظيما . فقد كان يقول : انى أعجب من شوقى كيف يمدح سعد زغلول ويتقرب إليه وهو أخلد من سعد فى التاريخ .

ولم يفتتن به أحد افتتان الأستاذ اسعاف النشاشيبى الذى ألف كتاباً قرنه فيه بصلاح الدين الأيوبى . وقال : ان من مفاخر الإسلام : صلاح الدين وشوقى الشاعر .

شعره فى الغناء :

لا شك أن شعر شوقى ارتفع بالغناء فى هذا العصر . ورده إلى العصر العباسى يوم كان المغنون يتخيرون أرق الشعر وأجزله فيغنونه .

فان أم كلثوم وعبد الوهاب ارتفع فنهما عالياً باختيارهما قصائد شوقى ومقاطيعه، يصوغانها ألحاناً ساحرة يطرب لها الكافة .

وان المناسبات الدينية والوطنية وجدت حاجتها كاملة تامة فى هذا الشعر العبقرى . وقد استغلها هؤلاء المغنون فسمت بأصواتهم ورفعت

أقدارهم فى الناس.وهم مشكورون أيضاً من هذا الشعر ومن صاحبه لأنهم بأصواتهم الجميلة وإقبال الجماهير عليهم قربوا هذه المعانى الرقيقة وتلك الألفاظ الحلوة إلى أذهان العامة وأشباه العامة .

فأصبحنا نسمع الصبى والعامل والفلاح يتغنون بهذه الأبيات :

يا جارةَ الوادى طَرِبتُ وشاقنى ... مايُشبه الأحلام من ذكراك

و . . .

مضناك جفـــاه مرقـــده ... وبـــكاه ورحم عُوَّده

و . . .

وما نيل المطالب بالتمنّى ... ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا

وغير ذلك كثير.

وفى هذا حجة للذين يقولون : ان الفنان الحق لا يهبط إلى العامة . إنما هو يجب أن يجذب إليه العامة بفنه الرفيع .

وقدأصبح شعرشوقى ثروة ضخمة للمغنين. إذا أحوجتهم مناسبة لشأن من شئون السياسة أو الدين أو الاجتماع أسرعوا يقلبون صفحات ديوان شوقى ليتخيروا الشعر المناسب للظرف الطارىء .

وقد استعانوا بأدباء لهم ذوقهم فى الاختيار .

وأنا أعتقد أن شعر شوقى يصلح كله للغناء لرقته وجزالة أسلوبه .

وانى أذكر أن الأستاذ المقرىء الشيخ على محمود سألنى يوماً فى اختيار أبيات فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ليغنيها .فأشرت له إلى بردة شوقى .فقال رحمه الله :

أنا لا أغنى البردة فقد ابتذلت أمام الموتى فى الجنازات .

وكان حديثنا فى مأتم شوقى . وقبل أن تغنيها أم كلثوم بأعوام طويلة.

فلما سمعتها من هذا الصوت السماوى فى هذا اللحن الدينى تذكرت حديثنا فترحمت على الشيخ وقلت : انه لم يكن موفقاً فى حكمه على تلحين البردة وغنائها : فقد رفع الشعر اللحن ورفع الصوت الاثنين معاً .

ولقد سمعت الأستاذ عزيز أباظه يقـــول لأم كلثوم فى سهرة غنت فيها همزية شوقى : ياست سومه غنى للشعراء المغمورين تخليدهم .

فقالت : أنا بحب نفسى فليه ما اسعاش لتخليدها .

كان أكثر الشعراء أغراضاً :

لقد نظم شوقى فى أغراض متناوحة عديدة لم يسبقه فى بعضها شاعر من قبل :

نظم فى الموسيقى . ونظم فى المسرح . ونظم فى الرثاء . ونظم فى الغزل . ونظم فى الوصف . ونظم فى التاريخ . ونظم فى المدح . ونظم فى الاخوانيات . ونظم فى الطب . ونظم فى النبات . ونظم فى الحيوان . ونظم فى الحشرات . ونظم للأطفال . ونظم فى الحكمة . ونظم فى الدين . ونظم فى الجغرافيا . ونظم للشباب . ونظم للشيوخ . ونظم فى الفلسفة . ونظم فى الخمر . ونظم فى الرقص . ونظم فى المجون . ونظم فى الطيران . ونظم فى الحروب . ونظم فى الإسلام . ونظم فى السياسة . ونظم فى الأحزاب . ونظم فى قناة السويس . ونظم فى السودان . ونظم فى الشام . ونظم فى تركيا . ونظم فى لبنان . ونظم فى فرنسا . ونظم فى انجلترا . ونظم فى الملوك . ونظم فى السوقة . ونظم فى الأزهر . ونظم فى القصور . ونظم فى النيل . ونظم فى دجلة . ونظم فى السين . ونظم فى غابة بولونيا ونظم فى انس الوجود . ونظم فى اسبانيا . ونظم فى البحر . ونظم فى النخل . ونظم فى الجبل . ونظم فى السماء . ونظم فى الأرض . ونظم

فى البرجمة . ونظم فى الاحتلال . ونظم فى الجلاء . ونظم فى الساسة . ونظم فى القواد . ونظم فى الجنود . ونظم فى المدن . ونظم فى الصحافة . ونظم فى الكتب . ونظم فى أغراض أخرى لاتفوت قراء شعره

ديوانه :

طبع ديوانه الأول سنة ١٨٩٨ فى مطبعة الأدب والمؤيد .

وقد ذكر : أن الذى أوحى إليه بعنوان ديوانه هو الأمير شكيب أرسلان قال :

جمعتنى باريس فى أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ فى طلب العلم . والأمير حفظه الله فى التماس الشفاء فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة .

وكنت أول عهدى بنظم القصائد الكبر . وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشوراً فى صحف مصر فتمنى أن تكون لى يوماً مامجموعة ثم تمنى على إذا هى ظهرت أن أسميها (الشوقيات) .

ثم انقضت تلك المدة . فكأنها حلم فى الكرى أو خلسة المختلس .

وقد حوت الطبعة القديمة من ديوانه شعر الصبا والمدائح فى توفيق وعباس وفى أغراض أخرى .

وخير ما فى هذه الطبعة قصيدتان : قصيدة مؤتمر جنيف التى يقول فى أولها :

همت الفلك واحتواها المـــاء   وحداها بمن تقل الرجاء

والثانية قصيدته فى ليلة راقصة ، أقيمت فى قصر عابدين وهى معروفة عارض فيها أبا نواس فى أبياته الحلوة التى يقول فيها :

حامـل الهوى تـعـب   يســتخفه الطرب
ان بكى يحق له   ليس ما به لـعـب

وجاء فى أول قصيدته :

حَفَّ كأسها الحَبَبُ فهى فضة ذهب
أو دوائرٌ دُرَرَ مائج بهـا لَبَبُ
أو فم الحبيب جلا عن جُمَـانه الشنب
أو يدانِ باطنُهـا عاطل ومختضب

وهى قصيدة طويلة تبلغ أبياتها ثمانين بيتاً . وهى من الشعر المرقص الجديد المعانى . ولبث قرابة سبعة وعشرين عاماً لم يطبع له ديواناً .

وظل أفخم شعره وأروعه وأخلده منثوراً فى الصحف وعند عشاقه من الأدباء . والقليل عنده .

فلو مات شوقى قبل أن يطبع ديوانه الثانى لضاع هذا الذخر الخالد ، ولكنه عنى بطبع ديوانه الجديد .

فكان يطلب إلى أن أبحث له فى الصحف المحفوظة عن قصائده .

فأنطْت هذا العمل برجل يعمل نساخاً فى الدار يبحث . حتى إذا عثر على قصائده نسخها . وقد جعلت له عشرة قروش يدفعها له شوقى عن كل قصيدة يعثر عليها وينسخها .

فجمعت له قصائد عديدة . فكان يرضى عن بعضها فيلحقها بالديوان ويطرح بعضاً آخر .

وكان أكثر هذا المطروح : فى مدح توفيق وعباس . وبدأ فى طبع ديوانه . فاختص الجزء الأول بما قاله فى السياسة والاجتماع والتاريخ . واختص الثانى بالوصف والغزل وببعض قصائده وسماها المتفرقات .

ثم مات ولم يظهر له إلا جزآن . الأول والثانى . ثم نشط أولاده من بعده فأخرجوا جزءين : الثالث والرابع .

تضمن الثالث : مراثيه كلها إلا قصيدتين إحداهما فى فتحى زغلول والثانية فى عبد اللطيف الصوفانى .

وتضمن الرابع : متفرقات بين المدائح التى أغفلها . وبين اخوانياته مع محجوب ثابت وقصص عن الحيوان جرى فيها مجرى لافونتين الشاعر الفرنسى . وشعره فى أولاده . وغير ذلك مما ند عن دواوينه الثلاثة .

وقد طبع من الجزء الأول خمس عشرة ألف نسخة . وكتب الثمن أربعين قرشاً على الغلاف .

فاعترضت وقلت : إن الثمن غال . وان غالبية عشاق الشعر فقراء وعدد النسخ ضخم .

فغضب . وقال : الأستاذ فلان طبع كتابه وقد وضع عليه مثل هذا الثمن ، فهل ترى أن ديوانى أحط شأناً من كتابه .

قلت : ان فلاناً طبع ألف نسخة . وله فى رواجها أساليب أنت تنأى عنها .

فأصر وقال : سوف ترى . وقد صح قولى . فلم يقبل على هذا الثمن كثير . فاضطر أن يخفض الثمن للطلبة إلى عشرين قرشاً .

فكان يدخل علينا المكتب رجل أشيب وآخر مقوس الظهر يتوكأ على عصا ويزعمان أنهما طالبان . فكان الكاتب يبيع لهما على أنهما طالبان . وما كان هذا التخفيض إلا حيلة لرواج الديوان .

وقد أرادت مكتبة الحلبى حين ظهور الديوان . أن تشترى كل

نسخة . على أن يكون ثمن كل نسخة عشرين قرشاً فرفض .

وقد وقف على تصحيح الجزء الأول : الدكتور سعيد عبده .

ووقفت أنا ونجله على شوقى على تصحيح الجزء الثانى. ووقف على مراجعة الثالث : الشاعر محمود أبو الوفا . ووقف على تصحيح الرابع الأستاذ سعيد العريان .

شوقي وحافظ

عجبت لحماد كيف يساجل بشاراً . وبشار فى العيوق [1] وحماد فى الحضيض .

هذه الكلمة قالها أبو عثمان الجاحظ فى شاعرين من شعراء الدولة العباسية .

أحدهما: بشار بن برد الشاعر الأشهر أستاذ مدرسة فى الشعر لا تزال باقية إلى اليوم . وإن كان قد مضى على موت الأستاذ ألف ومائة وستون عاماً .

وثانيهما : حماد عجرد شاعر أيضاً من شعراء الدولة العباسية . كان يعاصر بشاراً ويساجله ويهاجيه . ويدعى أنه أشعر منه . ولكن هيهات فذلك أمل خائب. فقد تعرض له كبير أدباء العربية فقال كلمته تلك .

اختلف فيهما الناس :

وقد جاء حين من الدهر كان فيه بعض الناس يختلفون فى شوقى وحافظ . كان بعض أساتذة اللغة العربية فى المدارس الابتدائية متعصبين لحافظ يدعون أنه أشعر من شوقى . وذلك لأنهم يقرأون شعره من صوته لا من ديوانه .

كانوا يسمعونه فى المحافل يلقى شعره فكانوا يفتتنون بحسن إلقائه وإبداعه المبدع فى التمثيل والتأرجح إذا أنشد الشعر . كان جهورى الصوت فخمه . لم يتهيب حفلا قط . كان يعبر عن معانى شعره بيده ورأسه .

---

(١) العيوق : اسم نجم .

وكان فى شعره بداوة وسطحية قريبة الغور سهلة المأخذ . لهذا افتتن به هؤلاء المدرسون الذين عجز ذوقهم عن الغوص فى عمق شعر شوقى وتفهمه .

وقد غرر بهؤلاء أيضاً وبقليل من المتأدبين بعض الصحف التى كانت تنفس على شوقى مكانته فى القصر . وتحسب أن حرمانها من إعانة الأمير كان برأى شوقى .

سمعت شوقى يقول : كان الخديو لا يعطى صحفياً مالا من جيبه أبداً . ولا من أموال الخاصة الخديوية . وإنما كان يكلفنى أن أسفر بين الصحفى والعين الثرى من أعيان المصريين .

فكنت أقوم بالوساطة حاملا رغبة الأمير فى معونة الصحف . لأن الصحف فى هذا العصر كانت لا تستطيع أن تنهض وحدها بغير إعانة خارجية . لأن إيراد بيعها وإعلانها لا يقومان بحياتها .

وكان الأمير يعطف فى أول الأمر على مصطفى كامل . وعلى صحيفة اللواء . فكان يأمرنى أن أمشى إلى عمر باشا سلطان الثرى المصرى المعروف — وكان عمر باشا كريماً لا يهمه المال أبداً — لأطلب منه بذل العون لجريدة اللواء . ولما كان عمر سلطان سخى اليد، كان يعطى اللواء الألف والخمسمائة فى يسر .

وكان يكره صحيفة المؤيد وصاحبها على يوسف . فكان يأمرنى أن أطلب من أحد أعيان المنوفية مالا . وكان رجلا يحترق بخلا . فكان يعطيه الخمسين جنيهاً بعد مشقة وجهد .

فكان على يوسف يظن أن الذى أشار على الخديو بهذه الاحالة

إنما هو أنا ، فكان يضمر لى هذا السعى فى زعمه شراً .

فلم يجد منفذاً منه إلى اغاظتى والحط منى إلا الشعر .

وأظن أن هذا السبب هو الذى منع شوقى من رثاء على يوسف .

وكان حافظ قد برز شاعراً معروفاً قدمه الأستاذ الإمام محمد عبده لحدبه عليه وانتسابه إلى إحسانه . فاهتبل على يوسف الفرصة وعقد مقارنة بين الشاعرين .

لقب الشاعرين :

وكان شوقى يلقب بشاعر الأمير . فأسرع على يوسف وأطلق على حافظ : شاعر النيل . وشتان ما بينهما .

فشاعر الأمير إنما ينسب إلى واحد . وشاعر النيل ينسب إلى المجموع المصرى والسودانى كله ، الذى يستقى من هذا النهر الخالد ، ومنهم الأمير نفسه .

ولم يعوز شوقى السعى إلى صحف أخرى كان يجود عليها بمال الرتب والنياشين . لكى يلقبوه بأمير الشعراء . فأصبح شاعر النيل رعية لأمير الشعراء .

وغر حافظاً اللقب والتنويه به فى صحيفة المؤيد . والنفس البشرية تغرى صاحبها بالوهم . إذا ارتاحت إلى فكرة اعتقدتها وآنست إليها .

فكيف بحافظ وقد وجد معيناً آخر مع نفسه . يوسوس له أنه قرين لأمير الشعراء . بل انه يفضله لوطنياته وفحولة ألفاظه .

أدباء سوريا وحافظ :

ولما توثق حافظ من هذه المعونة . طلب المزيد من غيرها . فتلفت ثم تلفت فوجد ضالته عند أدباء سوريا فسعى نحوهم .

وكان لهذه الطائفة خطرها فى ذلك العهد فى مصر . فقد كانت تملك غالبية أدوات النشر .

ووجد السبيل إليها سهلا . هى مدائح ينظمها فى هؤلاء السادة ويسعى بها إلى محافلهم تشيد بأوطانهم وأمجادهم .

فتلقفوا هذا اللاجىء المستعيذ بهم . ووفوه ثمن المدائح فيهم ، تشريفاً وتعظيما لاسمه . ولم يضنوا عليه بما فى نفسه ، فرفعوه إلى مكانة شوقى ، فتأكدت فى نفس شاعر النيل هذه الفكرة فتعصب لها . وحملها لسانه يخوض بها فى مشارب القهوات .

فاذا كنت ممن عاصر هذه المحافل فى مشرب اسبلند بار . أو فى قهوة جراسمو . فلا بد أنك رأيت رجلا ضخماً جهير الصوت يحمل أنفه منظاراً سميكاً . جالساً بين جماعة رثة الثياب رقيقة الحال ينشد شعراً. ثم يصيح هذا شعر لا يستطيع أن يقوله شوقى .

وكان لا يعدم مجاملا أو منافقاً يؤمن على هذا القول . ويقسم على صحته ، مقابل كأس من الزبيب أو وجبة قوامها الفول والبصل .

وكان شوقى فروقة هلوعاً . فخاف هذا المنافس وأحس بخطره . فأطلق كلاب الصحف الصفراء تنهش فى غريمه الجديد .

فعظم شأن حافظ وعظم صوته . والناس فى الشرق عبيد الشهرة .

فكثرت شيعة حافظ . وكثر اجتهاده . وولج باب الوطنية بقصائد تتملق الجماهير فى عاطفتهم .

وهذا باب لا يستطيع شوقى أن يلجه ، لأنه مقرون بأميره الخديو. فشاعره محسوب عليه . وقصر الدوبارة بالمرصاد .

فوقف شوقى يتغزل . ويصف البال . وقصر المنتزه وأنس الوجود . وهذه فنون لا تعنى إلا الخاصة من ذواقى الأدب الرفيع .

أما حافظ فقد اقتحم قصر الدوبارة . وهاجم المعتمد البريطانى . ولعن الاحتلال ولعن الإنجليز فى دنشواى . فصفقت له الجماهير ورفعته مكاناً علياً .

وسارت الحرب سجالا بين الرجلين . وإن كان شوقى المظلوم فيها. لأن التكافؤ معدوم بين الفارسين . ولكن هكذا شاء على يوسف . وشاء الأدباء السوريون وشاء حافظ .

وسعى شوقى فى تكريم حافظ . بل قل فى السخرية منه . فقدم له لقب بك من يد عباس الثانى .

وليس أوغل فى السخرية وأبعد فى الزراية من خلع لقب على رجل مفلس .

ولكن الكارثة التى ألمت بحافظ فى هذا اللقب لم تكن تامة . فقد سبقت يد أحمد حشمت باشا وزير المعارف فى تهوينها، حيث عين حافظاً بثلاثين جنيهاً فى الشهر فى الكتبخانة الخديوية .

فأمسك الصداح عن الغناء وشغله الرزق المضمون عن الشعر إلا

فى الفينة بعد الفينة فى مناسبات : رثاء عظيم أو مدح الأمير فى عيدى جلوسه وميلاده .

ووقفت الوظيفة الرسمية سداً منيعاً، ووقف الخوف من فقدانها دون الشاعر الوطنى الملتهب حماسة ودون الهجوم على قصر الدوبارة ، وفيه المعتمد رأس الاحتلال .

فقد حافظ شعبيته . كما أفقده الرزق الرتيب شاعريته . فأمن شوقى تلك المنافسة المقحمة عليه . ورضى حافظ بما وصل إليه من لقب وما حصله من رزق وترك الميدان وفى نفسه أشياء .

ولكن الصحف الصفراء التى تقتات من تلك المنافسة . كانت بالمرصاد خشيت أن تفقد رزقها من شوقى بعد أن رفع حافظ الراية البيضاء فى أبيات من الشعر يبطل فيها هذه المنافسة ويحكم لشوقى على نفسه .

أبت هذه الصحف هذا التخاذل وأخذت تؤرث النار . فيهب على لهيبها حافظ . ولكن فى محيط ضيق من مجالس الخاصة من أصدقائه لأنه يعرف خطر شوقى شاعر الأمير على حامل لقب وموظف صغير فى الحكومة المصرية .

وشبت نار الحرب الأولى سنة ١٩١٤ وشغلت الناس عن الشعر والشعراء .وطوحت بشوقى إلى منفاه فى اسبانيا وأفردت حافظاً فى الميدان .

ولكنه لم يهتبل الفرصة ليملأ مكان هذا الشاعر المبعد ولو بكثرة العرض وشغل الناس به .

ولكنه لم يفعل فقد طال نومه إلا فى أويقات كان صحوه فيها وبالا عليه . فقد مدح المندوب السامى مكماهون بعد أن كان يلعن كرومر . فكرهته الجماهير . فكأنه اختار موته من طريق كانت تمده بالحياة .

واشتاق الجمهور للشعر . فقد كانت تلك البيئة الأدبية لا تزال تذكر تلك الأنهار من الصحف وهى تفيض بالقصائد الشوقية والحافظية. وقد غاب الأول ونام الثانى .

صحيح أن خليل مطران وأحمد نسيم وأحمد محرم :كانوا يقولون أشياء ولكنها لم تكن هى غرض جماهير تعودت شعر شوقى وحافظ وآنست إليه

ولكن ذلك الضامر القصير المختلج العينين . الذى كان قول الشعر نفسه الذى يتنفس به . لم يلبث أن اخترق جبل طارق . وبعث على متن البحر الأبيض بأبيات . يشكو فيها ظمأه ويسأل شربة من ماء النيل ، كانت تحترق حنيناً إلى مصر .

فهب الشعراء يلوذون بأميرهم ويتوجعون له ، ومن ورائهم الجماهير تتألم للشاعر العظيم وتحن إلى إيابه . وتلعن الحرب التى أبعدت البلبل عن ايكته . وشارك حافظ الجميع فى المأساة ونظم أبياتاً يفدى فيها شوقى ويبكى على ظمأه ويتمنى اللقاء .

وانتهت الحرب كما ينتهى كل شيء . ومشى المرحوم أحمد زكى باشا وغيره من عارفى قدر شوقى إلى السراى ملتمسين الوساطة لشوقى فى الرجوع إلى الوطن .

فتحدث فى ذلك الملك فؤاد إلى الإنجليز فسمحوا بعودته .

عودة شوقى من المنفى :

كان يوماً حاشداً مساء قدوم شوقى ، فقد اجتمعت جماهير من الطلبة وغيرها للاحتفاء به على افريز محطة مصر ، وكنت فيهم .

وجا رجل ضخم يشق الطريق بعناء . وقد عرفته لأنى كنت قد تعرفت إليه قبل ذلك ، وكان هو حافظ . فعاونته فى زحم الجماهير وسايرته حتى وقفنا على حافة الإفريز ، حيث قدرنا أن تقف عربة شوقى من القطار .

ولم نلبث إلا قليلا حتى دق ناقوس التنبيه بالوصول . فتهيأنا ودخل القطار ، فاذا نحن برجل قصير يمسك بنيقة معطفه بيده خشية برد الليل .

وإذا بحافظ يهيب بى أن احملنى حتى استشرف على هذا الزحام لأطالع القادم . فاستغثت باثنين كانا يجاورانى فى حمل هذا الضخم . فكان جزاؤنا عن حمله نكتة لذعنا بها أول ما واجه شوقى . فقد قال : يا شوقى بك أنا قاعد على خازوق . فضحك شوقى ثم استقبله حافظ ببيتين يذكر فيهما أنه حمل الأمانة فى غيابه وأنه مؤديها له عند حضوره .

ومرت الأيام . وتقدمت إلى شوقى فى ليلة كان يشهد فيها فلماً فى دار عرض للسينما بغير وسيط وقلت : إنى نظمت قصيدة فى سعد زغلول سميتها السعدية . وهى تشمل حياته كلها . والتمست منه أن يسمعها فى يوم يختاره . فنظر إلى شاب صغير يجاوره قائلا : يا على (هو بكره عندنا مواعيد فين وفين) فنظر ابنه فى دفتر صغير وسرد عليه مواعيد الغد . فاختار لى الرابعة بعد الظهر موعداً فى كرمة ابن هانى بالمطرية .

ذهبت إلى الموعد وأسمعته قصيدتى فشجعنى . ثم تأكدت بيننا المودة حتى موته رحمه الله سنة ١٩٣٢ .

أنا وحافظ :

ويشاء الله أن ألتحق بدار الكتب المصرية عام ١٩٢١ وكان حافظ يعمل فيها رئيساً للفهارس العربية .

وكان حاضراً يوم تقدمت إلى مديرها طالباً الالتحاق. وكان المدير لا يحسن شيئاً إلا حسن الخط . كان خلوا إلا من تجويد أبجد هوز .

فلما نظر فى خطى أخذ يسخر منى . فتشبثت بخط حافظ — وكان رديئاً — فقلت : إن خط حافظ بك ردىء وهو شاعر النيل . فما لبث أن قال : (بقى يا واد أنا أكتب الكاف الملعونة دى) فضحكنا ثم اتصلت به اتصال زمالة .

وكان لايعمل شيئاً للدار. فأبرم ذلك المدير الخطاط. فطلب إليه أن يعرب السفر الثانى من البؤساء لفيكتور هيجو — حيث كان قد عرب الجزء الأول كما هو معروف — ثم يقدمه لدار الكتب لتنتفع به بالبيع .

فامتثل حافظ . وأخذ فى تعريب القصة ليقدمها عوضاً عن العمل الرسمى الذى لم يقم به قط .

وجاء الأستاذ الكبير لطفى السيد خلفاً للمدير الخطاط . فأعفى حافظاً من تقديم القصة إلى الدار . وأذن له أن يبيعها هو لحسابه . والعجيب أن حافظاً كان يخاف لطفى السيد . كان يعتقد أنه سيرهقه بالعمل ويضيق عليه فى المواعيد . حتى انه هم بالاستقالة . فلما رأى منه هذه الأريحية ولمس من روحه الفلسفية تسامحاً وعفواً، بكى أسفاً يوم اختير مديراً للجامعة المصرية المنشأة يومئذ حديثاً .

وكان عمله فى هذه القصة فى مشرب للقهوة يقابل الدار . وكنا

نتحلق حوله تاركين أعمالنا . وكان إذا فرغ من تعريب جملة نثر على أسماعنا كلامه .

وكان يختار اللفظ الجزل . وأحياناً الغريب المتعاظل .وكان شديد النقد للألفاظ . لا يختار إلا ما تقره الجماعة بعد أن يوافق ذوقه . لأنه كان كثير العرض لشعره ونثره على الناس . .

كان حافظ يتعرض لشوقى :

وكان سرعان ما ينهى عمله ثم يخوض معنا فى سمر لا تمل حلاوته . وكان لا بد فى سمره أن يتعرض لشوقى وشعره . وكانت تهفو نفسه إلى تلك المنافسة القديمة بينهما .

وأردت يوماً أن أعبث به مع صديقى وزميلى أحمد نسيم — وكان يعمل معنا فى دار الكتب — قلت :

يا نسيم إذا حكموك فى اعطاء مليون جنيه لقسمتها بين شوقى وحافظ فكم تعطى لشوقى وكم تعطى لحافظ .

فتظاهر نسيم بإعمال الميزان وتقدير المقادير . وقال :أعطى شوقى : تسعمائة ألف وأعطى حافظاً : مائة ألف .

فنظر إليه من فوق منظاره السميك وأخذ يرشف من مبسم نرجيلته التى كان مولعاً بتدخينها ولم يقل شيئاً .

ومضت أيام واحتاج نسيم إلى مال ، فسألنى أن أسأله فى جنيه له . فذهبت إليه فى مكتبه فى القهوة . فلما اطمأن بى المجلس كلمته فى حاجة نسيم .

فلم يكد يسمع قولى حتى تغير وجهه ولاح الغضب عليه وصاح :

وأنا أديله جنيه ابن ... . وهو اللى ادى شوقى تسعمائة ألف وادانى مائة ألف ، اخى دا بعده .

ورجعت إلى نسيم بالخيبة فحملنيها وقال : إنت السبب فعليك أن تعوضنى من شوقى ما خسرته عند حافظ . فقلت سأفعل .

وكان من عادتى أن أختلف إلى مكتب شوقى فى عمارته فى شارع جلال كل مساء . وكان شوقى يسألنى أحياناً عن دار الكتب ثم يدرج اسم حافظ فى تضاعيف الكلام قائلا . (ازاى حافظ بك) يقولها فى ابتسامة خفيفة ماكرة .

فلما كان يوم خيبة أحمد نسيم ذهبت إلى المكتب كالعادة . وجاء شوقى تحتك نعله بالأرض ثم جلس معنا .

فأخذت أتحايل فى إيراد حديث الصباح لأنفع نسيما الذى أخفق من جدوى حافظ . والذى حملنى هذا الإخفاق .

فوجدت الفرصة وقصصت الحديث عليه . فضحك حتى لاح طربوش من البلاتين كان يعصب به سنته . ثم قال : قل لنسيم أن يمر على غداً .

فجاء نسيم وأخذ خمسة جنيهات بديل واحد . فاجتهدت أن يدعونى إلى سهرة حمراء أو إلى غداء طيب . فأبى واستأثر بالخمسة وحده .

وكنت أحب أن أجمع بين الاثنين دائماً . وكان أصحاب الصحف الصفراء يفرقون بينهما بما يلمزون به حافظاً فى شعره .

وكان يوقن أن شوقى هو الموصى بهذا اللمز . فكنت أختلق له الحديث فى تكريم شوقى له . وانه يحبه . وكان طيب القلب يصدق

كل ما يقال له كأنه طفل صغير . وكنت أحمل هذا الاختلاق أيضاً إلى شوقى . فقد كنت أحب الرجلين وإن كان حافظ أقربهما إلى قلبى .

ولكن سرعان ما يتغير حافظ .تغيره هذه الكلاب النابحة فى أوراقها الصفراء . فيعود إلى ذم شوقى وشعر شوقى وأنه أشعر منه .

وكنت أحس هذا التغيير فى لقائه لى . فاذا جئته ونفسه متغيرة نحو شوقى . عبس فى وجهى وجابهنى بالغليظ من القول . كأنى أنا شوقى وكأنى أحمل وزره نحوه .

وكنت أعرف سهولة قياده . فكنت أتجلد وأستهدف غليظ كلامه وعبوسه الساعة والساعتين . ثم أنفذ إلى قلبه الطيب بتكذيب ما سمعه من هذه الصحف . وأقسم له بالله — وأنا صادق — ان شوقى لم يذكره إلا بالخير .

وفى الحقيقة إنى ما سمعت شوقى يذكر حافظاً بسوء قط . ولم يذكر اسمه مجرداً قط بل كان دائماً يقول : حافظ بك .

وكان حافظ على النقيض من ذلك . كان إذا غضب منه من وشاية مسموعة أو مكتوبة . انهال عليه بألفاظ كالحجارة . فكنت فى بلاء بين هذين الشاعرين . كنت أحاول التقريب بينهما لأستمتع بمجلسهما ولأفخر بصحبتهما .

ولكن كلما أرتق فتقاً. أسرعت الكلاب العاوية إلى فتقه . فقد طالما أكلت هذه الكلاب طعامها على المائدتين وشربت ماءها من الإنائين .

كنت أشهدهم فى شارع جلال يعوون كما كنت أبصرهم فى قهوة الكتبخانة الخديوية ينبحون .

وحدث أنه طالت الجفوة بين الرجلين شهوراً . فأردت أن أجمع بينهما من جديد، وكانا قد نظما قصيدتين فى غرض واحد لمناسبة واحدة فاتنى ذكرها .

قلت لشوقى : لا يجوز أن تسمع لهؤلاء الساعين بينكما .وان حافظاً يحبك ويشهد أمامك أنه يقدمك على نفسه . وكان هذا حقاً فان حافظاً كان إذا جلس إلى شوقى لوح له فى ثنايا حديثه أنه أمير الشعراء وأنه من رعاياه . وإذا خلا إلى نفسه أو إلى جماعة من الأدباء . أنكر هذا وقال : منه أمير ومنى أمير . كما قالت الأنصار للمهاجرين يوم سقيفة بنى ساعدة .

وقد سر هذا السعى للتقريب بينهما شوقى لغرض ينويه . فقد أراد أن يسمع منه قصيدته فى الغرض الواحد والمناسبة المشتركة بينهما. فقال : قل له أن يشرف مائدتى فى الغداء غداً . فقلت : ان الجفوة بينكما طويلة . فيجمل بك أن تبعث بابنك حسين لدعوته .قال : سأفعل وسيذهب غدا إليكما .

فلما كانت الساعة العاشرة ونصف صباحاً . هبطت إلى حجرة التدخين فى الدار — لأن التدخين ممنوع فى حجرات العمل — فلقيت حافظاً يتوسط أحمد الزين الشاعر والهراوى وآخرين وهو يلقى قصيدته الجديدة . فما كاد يلمحنى داخلا حتى قطع انشاده وصاح مزمجراً : أخرج، أخرج ياجاسوس . انت جاى تسرق له معنى أو معنيين من قصيدتى .

فخجلت وكان عنيفاً . ولكنى لم أسكت فقد دفعنى سوء الموقف

إلى القحة فقلت : يسرق منك انت يا شيخ قول كلام غير ده وانت إيه ثم وليت راجعاً .

ووقفت أمام باب دار الكتب وأنا فى أسوأ حال .

فما هو إلا قليل من الزمن حتى أحسست به يقترب منى ويقول : سعيده يا واد . وكان رحمـــه الله طيب القلب . فما كدت أسمع تحيته حتى انفجر بارود غضبي وصحت به : أرجوك لا تكلمنى بعد هذا . أنا لا أنكر انك رئيسى . وانك تملك من أمرى أشياء . ولكن هذا لا يبرر أمام جمع من الأدباء أن تشتمنى وتلقبنى بالجاسوس . وهل معقول أن شوقى يسرق معانيك .

فتجدد غضبه وعلا صوته صوتى . وكنت أحبه فلم أشأ أن أزيده اشتعالا . فقلت بصوت خفيض : على أية حال فهويدعوك إلى مائدته اليوم للغداء .

فعاد الطوبجى القديم إلى قذائفه يلعن شوقى ومائدته ويلعننى . فتركته يسب وسكت . ولم نلبث إلا قليلا وهو محتدم السباب . ويقول فيما يقول : (والله لومت من الجوع ما أروح بيته) حتى وقفت عربة سوداء أسفل السلم ونزل منها فتى صغير نحيل . ووثب على درجات السلم يطويها حتى واجهنا وقال :

سعيده يا عمى . فتأمله بصره الكليل المحتجب بالمنظار ثم تبينه . فأهوى إلى خديه الناحلين وأخذهما بين إصبعين من أصابعه الطويلة الأظفار وقبلهما ورحب بعاطفة صادقة قائلا (أهلا بسيس) — وهذا لقب تدليل يطلقه شوقى على ابنه حسين — فقال سيس : محفوظ أخبرك أنك مدعو اليوم على الغدا مع بابا .

فنظر إلىّ مظهراً استنكاره وقال : (انت ما قولتليش ليه) فابتسمت وقلت : انى نسيت . فلم يرحمنى ولم يقدر كذبى الذى ارتكبته لتغطيته وقال : (انت تنسى أكله يا شباح) . وقال لسيس : (طيب يا حبيبى حاروح أنا والملعون ده) وأشار إلىّ .

وانصرف حسين شوقى . فالتفت إليه — ووجدت فى نفسى جرأة لهذا التناقض الذى بدر منه — فقلت : (بقى يا راجل يا اللى ما عندكش مبدأ انت كنت بتقول لى إيه دلوقت) .

فنظر إلى من فوق المنظار كالعادة وقال : ياواد أنا أحب أولاده . وذهبنا وتغدينا وأسمعه قصيدته . ولم يسمعه شوقى قصيدته .

واتصلت المودة بينهما . ونعمنا بالجلسات الأسبوعية فى سفح الهرم التى أسلفت ذكرها . ولكن حدث حادث كاد يقطع هذه المودة إلى الأبد . لولا صفاء هاتين النفسين الكريمتين .

تجنى شوقى على حافظ :

كان شوقى قد نظم قصيدة فى غرض لا أتذكره ؛ وشاركه حافظ أيضاً . وعلمت صحيفة السياسة — وكانت فى أوج مجدها — بهذه القصيدة . فتقدم الدكتور حسين هيكل رئيس تحريرها إلى شوقى وطلب إليه أن يختص السياسة دون الصحف المصرية بنشر القصيدة على أن تمنحه السياسة خمسين جنيهاً يوجهها إلى ما يشاء .

فاغتبط شوقى بهذا العرض الذى لم يسبق فى تقدير الشعر العربى فى مصر . ونشر الخبر فى السياسة قبل نشر القصيدة بأيام . وان أمير الشعراء قد تبرع بالمبلغ لجهة خيرية — نسيتها .

قرأ حافظ النبأ فاشتعلت الغيرة فى صدره . وأسرع يهرول بعصاه إلى محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين وراعى السياسة . وكان حافظ صديقاً لمحمد محمود قريباً منه . يمدحه ويمدح أباه وإخوته فهو صديقهم وشاعرهم من عهد طويل .

وتأثر محمد محمود ووعد حافظاً بأن السياسة ستشترى قصيدته كما اشترت قصيدة شوقى .

وجاء حافظ مزهواً يدلى إلى بالخبر وهو يكاد لا تسعه الدنيا فرحاً. فحملت الخبر إلى شوقى فى بساطة طبيعية لا أعنى شيئاً من وراء حمله. ولم أقدر أية خطورة له . وما ظننت نفساً عبقرية يحفزها هذا الخبر إلى الغضب الشديد ثم الذهاب إلى جريدة السياسة لسحب القصيدة بعد الإعلان عنها وعن الخمسين جنيهاً . لم أقدر هذا . ولم يدر بخلدى هذا الصغار الذى حفز شوقى إلى هذه الفعلة .

وهل حمل هذا الخبر إلى شوقى هو الذى أضر بحافظ؟

لا ، فالخبر لا بد أنه سيذاع فى صحيفة السياسة وأن شوقى سيعلمه منها .

ولكن حافظاً غفر الله له خلع على كل نعوت النذالة وشتمنى أقبح شتم . ونسب إلى رجوع محمد محمود فى وعده له باعطائه الخمسين جنيهاً . ووضعه مع شوقى فى موضع واحد من التشريف . وسمعت السياسة إلى شوقى . ونحت قصيدة حافظ عن النشر ؛ ونزلت النازلة وساء ما بين الرجلين . ولكن نفس حافظ الطيبة ما لبثت أن غفرت .

مبايعة حافظ لشوقى :

وأقيم لشوقى مهرجان تكريم عام ١٩٢٦ ضم وفود الشرق العربى كله، استغرق سبعة أيام فى الاحتفال بأمير الشعراء .

ونظم شعراء العراق ولبنان وسوريا وغيرهم من شعراء الشرق العربى قصائد تمجيد وإشادة .

ورأى حافظ أن يشارك فى تكريم الشاعر المصرى . فنظم قصيدة فحلة عدد فيها روائع قصائد شوقى . وذكر فيها بيعة الشعراء لأميرهم وسلك نفسه فيهم .

وسمعته يقول لشوقى : سأبايعك فلا بد أن تكون قريباً منى . وأنا أنشد على مسرح الأوبرا . لأشد على يديك عند ذكر البيت الذى أبايعك فيه .

فشكره شوقى، واحتار فى هذا المشهد المسرحى . لأن بنواره الذى كان يحتله بعيد عن خشبة المسرح التى يقف عليها حافظ . ولكنه رأى أن يستأذن الأمير عمر طوسون فى أن يجلس معه ببنواره . وكان ملاصقاً للمسرح .

فرضى الأمير أن يجالسه شوقى ليتلقى البيعة فى مصافحة حافظ . ودوى صوت حافظ يعلن :

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفود الشرق قدأقبلت معى

ومد يده إلى شوقى وصافحه وتم المشهد المسرحى .

وسجل حافظ على نفسه أنه أصبح من رعايا شوقى فى أكبر حفل أدبى عقد فى مصر فى القرن العشرين .

واستكان إلى حظه . وأخذ يترنم بشعر شوقى ، فقد قال لى : أنا أحسد هذا الرجل على هذا البيت فى سينية الأندلس :

خرج القوم فى كتائبَ صُمٍّ عن حِفاظ كموكب الدفن خُرس

وأحسده فى هذين البيتين فى قصـــيدته لكارنا فون مكتشف توت عنخ أمون .

أفضى إلى ختم الزمان ففضّه وحبا إلى التاريخ فى محرابه

وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعونَ بين طعامه وشرابه

ولم أسمع شوقى يروى بيتاً لحافظ قط . إلا شهادة شهدها له .

كنت سألته فى حفل أقيم لتكريم عدلى يكن باشا عام ١٩٢١ . وكان قد قطع المفاوضات مع الإنجليز . فرأى حزب الأحرار الدستوريين أن يكرم رفضه قبول العرض الإنجليزى .

فأقيم الحفل وخطب فيه الخطباء وشعر الشعراء . وفيهم حافظ والشيخ عبد المطلب وأحمد نسيم وأنا . فسألته عن أحسن قصيدة ألقيت . فقال قصيدة حافظ ولا شك لأنها مخدومة . وهذا تعبيره بالنص ..

رثاه شوقى :

ومات حافظ قبله بثلاثة أشهر فبكاه . وأفزعنى أن يقول فى مطلع رثاءه له :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة قدر وكل منيــة بقضـــاء

ولو كنت تعلم ما أعلمه من حرص شوقى على الحياة وكرهه للموت غاية الكره وبغضه لذكره بغضاً قاتلا . لفزعت معى .

ولكنه المرض الذى ألهمه هذه الفلسفة — وسأتعرض لذلك فى ذكر موته — أو لعله ذكر قول جرير الشاعر بعد موت الفرزدق : والله ان بقائى بعده لقليل .

ولم يكن البيت الأول فلتة . بل أكده بعد ذلك . ولم ينس الساعين الذين طالما مشوا بين الشاعرين بالوشاية ، وأفسدوا بينهما حتى بعد الموت فقال :

ووددت لو أنى فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائى
الناطقون عن الضغينة والهوى والموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدّام ويبنى مجده بكرائم الأنقاض والأشلاء

نظرة فى شعره :

الآن وقد فرغنا من الحديث عن المنافسة بين الشاعرين . نستطيع أن نتكلم قليلا عن شعر حافظ ابراهيم .

كان شعره قريباً إلى القلب . يخلطه بنفسه من غير عبقرية ولا إبداع . كان فيه روح حافظ المرحة الطيبة .

فالقارىء لا يمل قراءته وإن رجع من تلك القراءة بغير عائدة . كان شعره جذلا فخماً . ولكنه لم يكن كله كذلك فى كل حالاته .

كان ضحل الخيال لا يضرب فى الأعماق بحظ وافر ولا نزر . بل كان شعره مقالا فى صحيفة ، قوم ووزن وقطع وجعلت له قافية .

وقد كان فى هذا الشعر عاطفة صادقة . ولكنها لم تكن عاطفة فنان بل كانت عاطفة جماهير . ولم تنتظم هذه العاطفة شعره كله .

يقول الشعر مكرهاً لمناسبة ملحة . فلم يذكر الطبيعة لأنها سحرته .

ولم يتعرض للبحر لأنه يروعه بعظمته . ولم يتحدث عن الفجر وجماله. ولا عن الليل وسكونه وهمسه . ولم يضرب فى الماضى بخياله ليستخرج التاريخ شعراً رائعاً كما فعل شوقى .

حقاً إنه ذكر زلزال مسينا . وزيارة أوجينى وهى مخلوعة التاج . كما ذكر حريق ميت غمر . ولكن هذا كان دون القليل لشاعر مكث أربعين عاماً ينظم .

وهناك شعره الوطنى . وكان غرضه منه الشهرة وكسب تصفيق الجماهير . وقد أخذ من هذا الشعر أكثر مما أعطاه . وقد حاول أن يقيم صرح هذا الشعر الوطنى الذى كان قد مال ، ولكن جهده كان ضعيفاً فى أخريات أيامه .

رحم الله حافظاً وأجزل مثوبته فقد كان طيب الشعر طيب القلب.

طرائف معي

كان يريد أن يسلمني للبوليس :

إن طرائفه كثيرة جمة ؛ ففى شذوذ عبقريته ، وفى واسع خياله ، مجال فسيح للطرائف . وإن حياة العبقرى كلها طرائف فهو يعيش فى غير دنيا الناس . لا يتقيد بقيودهم ولا يجرى على سنتهم ولا يرى ما يرونه .

والتاريخ حافل بطرائف هؤلاء العباقرة . وقد أوردت الكثير عن طرائف شوقى وعاداته . وقد أردت هنا أن أقتصر على بعض طرائفه معى . فهى طريفة مستملحة وإن كنت قد لقيت فى كثير منها إحراجاً وعنتاً غير مقصودين .

عرفته بعد رجوعه من المنفى بشهر واحد . ثم تأكدت المودة بيننا تأكداً متيناً . وقد كنت مفتوناً بصحبته سعيداً بها فخوراً . فأردت أن أظهر هذه الفتنة وتلك السعادة وذلك الفخر ، فاعتزمت أن أنظم قصيدة تشمل حياته كلها . أضمرت هذا العزم فلم أبح به لأحد حتى هو كتمت عنه هذا .

فلما تمت القصيدة وكانت تتضمن تاريخ حياته كلها . وبلغ عدد أبياتها مائة وعشرين بيتاً ، حملتها إلى رجل أديب كريم كان يحبنى ويسمع إلى أدبى . وكان وجيهاً سيداً له مكانته . وهو أيضاً يتصل بنسب للزعيم سعد زغلول . وكان وزيراً سابقاً .

فلما قرأت القصيدة على محمد باشا صدقى أعجبته لأنه كان يقول الشعر أيضاً . فاهتبلت الفرصة ، فرصة إعجابه بالقصيدة وقلت : ياباشا انى أريد أن أتظلل بك فى إلقاء هذه القصيدة على الناس .

فقال رحمه الله : يسرنى هذا وسأقيم حفلا فى أى مكان تختاره

وسأقوم بالنفقات وكل ما يجب لهذا الحفل . وسيكون بالطبع شوقى حاضراً .

قلت : والله انى لم أعلمه بهذا . وأحب أن يكون هذا الحفل مفاجأة له . فضحك وقال : أتكرم رجلا مقيما فى مصر فى حفل يغيب عنه ولا يحضره ، ما هذا ، انك ولا شك طفل لا تعرف آداب المجتمع ونظامه . فخجلت من هذا التقريع ، وقلت : سأنهى إليه شأن هذا الحفل ثم أعود إلى سعادتك للاتفاق على الحفل .

حملت قصيدتى تحت إبطى وتوجهت إليه حيث كان يقضى وقته. وكانت الساعة الواحدة ظهراً . وهو موعد جلوسه فى جروبى شارع عدلى . وكان بالأمس يسمى شارع المناخ .

دلفت إليه وكان يجلس بين جماعة كثيرة أخلاط : بين ابن ذوات . وعالم . ووجيه . وصاحب أعمال . وكان المشرب يعج فى هذه الساعة بالعدد الوفير من الارستقراطيين . والمتبطلين . هؤلاء الذين يحقرون الفقراء وكل من ليس من طبقتهم ، ويظنون كل من يحييهم وكل من يسألهم حاجة ولو أين الطريق ؛ إنه إنما فعل ذلك طمعاً فى جاههم أو مالهم.
كانوا فى ذلك العهد يعيشون فى أبراج بللورية يشرفون منها على الناس من عل . ولا يعرفون أقداراً إلا لمن على حالهم من الثراء والأصل والجاه .

فلما بصر بى رحب ودعانى إلى الجلوس . وقال : ما هذه الأوراق التى تحملها معك . ؛ فاعترانى زمع لقضاء حاجتى . وقد ترك تشجيع محمد صدقى فى نفسى لهفة على إنهاء أمر هذا الحفل .

قلت : هذه قصيدة فيك نظمتها . وأنا الآن راجع من بيت محمد باشا صدقى ، وقد اتفقنا على أن نكرمك فى حفل مشهود . وأنا حاضر الآن للاتفاق على تشريفك حفلتنا .

فاذا به يتحول من رجل باسم ظريف إلى نمر شرس عقور . وصاح فى غضب عاصف وبصوت مرتفع قرع كل أسماع الجلوس فى هذا المشرب الارستقراطى :

انت مدسوس على من الإنجليز . انت تريد أن ترجعنى إلى المنفى. انت متصل بدار المندوب السامى . سأبلغ البوليس .

فأصابنى شلل عطل لسانى وتفكيرى وشمل كل حواسى . وأحدقت بى العيون المتطفلة الفاحصة . ودار الهمس بين هؤلاء الكسالى . وأصبحت لا أستطيع المكث ولا أستطيع الانصراف . ووقعت فى بلاء عظيم .

وبعد فترة قصيرة رجعت إلى نفسى الجريحة فقلت : إيه ده يا راجل هو برده ده جزائى. كتر خيرك ! ثم انصرفت تشيعنى تلك العيون الهازئة المتطفلة .

فلما صرت فى الشارع إذا بصاحب لنا كان يجالسه يجرى ورائى ويقول : يا شيخ ما تزعلش . تعالى كلمه دا متأسف .

فاذا بغضبى المكتوم ينصب على رأس هذا الصديق فى قذائف كلها لعن فيه .

وانصرفت إلى بيتى وأنا فى أسوأ حال من الخجل والاضطراب . وآويت إلى فراشى من غير غداء .

حتى كانت الساعة الخامسة مساء . إذا بخادم تطرق على باب غرفتى وتقول : هناك رجل فى الحديقة يسأل عنك فقلت : من يكون قالت : قصير عجوز .

فلم ينصرف خاطرى إليه قط. فقد باعد غضبى عليه بينى وبينه. وبت كل وصلة بيننا فى نفسى . فلما خرجت إلى الحديقة وأنا فى جلباب نومى لأستطلع أمر هذا الزائر القصير . ألفيته وقد أخذ بعروة سترته العليا كعادته وهو يرفع عينيه المختلجتين إلى تعريشة استراح عليها كرم عنب . فلما لمح سوادى مقبلا عليه صاح : العنب ده باين عليه من النوع الممتاز .

فأجبته بصوت دهش تخالطه حشرجة : نسيبى جايبه يا باشا من ادفينا لأن أخاه كان ناظر قصر أفندينا هناك .

فلم يستفسر بعد ذلك عن شيء آخر فى الحديقة . ثم قال : انت مش لابس ليه ياالله البس حالا وأنا هنا منتظرك .فقلت : تفضل ياباشا فى الفرندة أو فى غرفة الجلوس .

فقال : لا. اسرع والبس ثيابك .

فامتثلت وارتديت ثيابى حتى إذا جئته أخذ بيدى وأركبنى معه عربته الواقفة أمام الباب . وانصرفنا ولم يشر إلى حادثة الصباح بحرف . ولم يعتذر لى ، ورأيت أن فى تفضله بزيارتى ترضية كافية .

ولكن نفسى لم تصف له . فقد رسبت فى نفسى حادثة إهانتى فى جروبى .

فبعد سنين عديدة دعانا طبيبه الدكتور حسين برسكا إلى العشاء . وكان أستاذ مستشرق فى جامعة فى برلين أنشأ بحثاً فى حافظ ابراهيم .

فلما تنوع حديثنا . ألمع أحد الجلوس إلى حديث هذا البحث فالتفت إلى قائلا : انت ليه ياسى محفوظ ما تعملش بحث فى .

فاهتبلت الفرصة للانتقام وقلت : هو أنا مجنون يا باشا . أعمل فيك بحث بعد أن سمعت منك انك ستدعو البوليس لأنى مدحتك ونظمت فيك شعراً . لا . . . أنا غير مستعد أن يقبض على البوليس . فضحك وقال : هو انت لسه فاكر الله يقطعك .

ألقانى فى مأزق حرج :

كان من عادتنا أنا وولداه : أن نلم به فى صولت فى الساعة الثانية صباحاً ليصحبنا معه . أنا إلى منزلى بحدائق القبة وولديه إلى حيث يقطن فى المطرية .

وكان طريقه إلى داره طريق الحدائق. فكنت إذا أدركت منزلى. نزلت من العربة شاكراً . وكان لابنه على شوق عربة خاصة ؛ فكان كثيراً ما تقله فى الرواح إلى كرمة ابن هانى .

وكان من العادة أن يذهب على بعربته إلى حيث كان يجلس فى صولت . ليذهبا سوياً إلى الدار . على شريطة أن تتبع عربة ابنه عربته وتسير بسيرها . وكان يخاف السرعة ويكره أن يسير إلا على ثلاثين كيلو فى الساعة .

فلما ذهبنا إليه . وكنت أركب مع على . أمر بالرواح.وكانت الساعة قد بلغت الثانية وفاتها . فسرنا وهو فى المقدمة .وكان يصحبه سيس . وأنا مع على فى عربته .

فكان من سواد ليلتى ونكدها أن تعطلت عجلات عربة على أمام

شارع داری كأنها كانت على ميعاد مع هذا الشارع الذى أقطن داراً فيه . فانها لم تكد تحاذيه . حتى أطلق الكاوتش قذائفه ، ثم هبطت عجلة إلى الحضيض ، ولم تكن عجلة واحدة بل كانتا عجلتين .

فتوقف الركب . واستحال على السائق أن يصلح عجلتين فى وقت واحد . والليل مسرع فى فراره . ولم يبق على الفجر إلا ساعة و بعض الساعة.

فاقترح السائق أن تقطر عربة على فى عربته حتى المنزل فى المطرية. ولا بد لها من حبل لتقطر فى العربة الأخرى ؛ وأين الحبل ؛ فى هذه الساعة.

التفت إلى وقال : ان منزلك هنا ، فأسرع وأحضر لنا حبلا . فكأنه كان حبل المشنقة يأمرنى باحضاره ليطوق به عنقى .

فقد كان نسيبى رحمه الله يقطن فى دار تجاور دارى. وتضم الدارين حديقة واحدة . وكان عنيفاً غليظاً يبغضنى و يرانى لست أهلا لابنته . لأنى طويل السهر كثير الشراب

ويوقن أن الذى يدفعنى إلى هذا السهر وذاك الشراب إنما هو شوق . وكان يقيناً خاطئاً . ولكن الريبة واقعة لاشتهارى بصحبته

وكنت إذا دخلت الدار بعد سهرى. و حالفنى الحظ ولم تحس زوجتى بمقدمى . آويت إلى فراشى حامداً للصدفة الطيبة فعلها . وأما إذا تخلى عنى ووجدت السيدة يقظى. فالويل والحرب ثم صمتى المطبق . حتى يأذن الله بكشف الغمة . فآوى إلى سريرى مخذولا حتى الصباح حيث أكون قد هيأت عذراً جديداً . وتنتهى الحرب بسلام . فلا بد للحبل من سؤال . ولا بد للسؤال من جواب . والجواب معروف :

صحوة الزوجة ونشوب الحرب التى لاشك أنه سيدخل فى أوارها نسيبى الحاثم فى سريره بقرب نافذة تطل على سلم الحديقة ؛ حيث أصعد عليه إلى باب دارى.

وهل أستطيع أن أقول لهذا البركان الثائر المضطرم الأعصاب في الساعة الثالثة صباحاً : ان طلبه الحبل سيخرب بيتي .كلا لا أستطيع فاعتزمت الانتحار وأقدمت .

وقرعت الجرس . وكانت السيدة يقظى تنتظرني وتعد السيوف والرماح والدبابات والمدافع والطائرات للهجوم . فلما برزت إلى الصف واجهتني المهلكات والمفرقعات . فاستمهلت العدو ورجوت هدنة حتى أظفر لشوقي بحبل . فكان الحبل النار التي عجلت في إشعال البارود والبنزين الذي عاون الطائرات على الانقضاض . وليت الحرب اقتصرت على عدو واحد .ولكنه اتسع لهيبها بدخول النسيب الكريم خصما ثانياً . فقد استيقظ على ضجيج الموقعة ثم اشترك فيها .

فلما استبطأني شوقي واستبطأ الحبل . عاج بالعربة السليمة حتى جاء الباب . وأخذ يقرع الكلاكسون وينادي في هدأة الليل الساكن باسمي في قوة قارعة .

فوقعت بين بلاءين . وحوصرت بين حربين :حرب في الداخل وحرب في الخارج .

فلما رأت السيدة أني أمسيت مقهوراً مخذولا سيء الحال . رقت لحالي وأدركتها الشفقة على هذا المسكين الذي يحارب في جبهتين عدوين قويين . فرق صوتها وأغمدت أسلحتها وقالت : ما عندناش حبال ما فيش إلا سلك في الجنينة منصوب لنشر الغسيل روح ودهله .

فحمدت الله الذي لطف بي ونجوت من حرب الداخل .فهرولت إلى العدو الخارجي لأسكن غضبه وأبشره بالفرج في الحصول على الحبل. فما كدت أبلغه حتى صاح في وجهي : إيه ده احنا حنبيت في الشارع . فين الحبل ؟

فقلت : انى شارع فى فكه لأنه مربوط إلى قوائم خشبية وعقده متينة فصبراً قليلا .

فصاح : يا شيخ روح هاته قوام .

فرجعت إلى السلك الذى أشارت إليه السيدة . فاذا هو غليظ عات أحكم لفه على قوائم غليظة من الخشب . فأخذت أعالجه وأنا فى لهفة . وقد فقدت النصير والمعين حتى دميت أصابعى وسال دمى على ثيابى . ولكنى تشبثت تشبث اليائس حتى استلان الخبيث وأجاب . وحملته وأنا جريح إلى هذا البركان الثائر . فلما رآه لم يشكر ولم يحمد بل قال : هو انت مالكش حكم فى بيتك . انت ما انتش راجل . فلزمت الصمت والله يعلم بحالى .

كان يخفى سنه عن الناس :

لما شرع فى طبع ديوانه الشوقيات . سألنى أن أجمع له قصائده المنشورة فى الصحف المحفوظة فى دار الكتب المصرية . فلما عثر النساخ الذى كلفته بجمع هذه القصائد على قصيدة له فى مدح الخديو توفيق أحضرها إلى . فنظرت فيها فاذا فى أولها :

قال أحمد افندى شوقى يمدح صاحب السمو الخديو بعيد الجلوس السعيد لسنة ١٨٨٦ . فأمرت بنسخها وكنت أعلم أنه يرفض أن يثبت المدائح جميعها فى الديوان . ولكنى أردت أن أداعبه بهذه الحجة الدامغة على قدم سنه التى يخفيها عن الناس . فأمرت النساخ بأن ينسخها . ففعل . ثم حملتها معى فى العشية إلى المكتب . وكان من عادته أن يسألنى عن القصائد التى أعثر عليها وعن عددها وأغراضها . فلما سألنى قائلا :

جبت إيه النهارده. أخرجت القصيدة وأسرعت فى قراءتها بصوت عال . فلما بدأت بالعنوان وفيه السنة المعلومة .صاح : كفى كفى .قطع . قطع .

فأردت أن أبالغ فى المداعبة . فقلت : القصيدة جيدة ومعانيها سامية . وقد دفعنا فى نسخها عشرة قروش .

فغضب وصاح : يا أخى وانت مالك . قطعها . وهو انت اللى يتدفع فلوس النسخ .

فقلت : حاضر ومزقت القصيدة .

وله فى حديث السن عجائب وغرائب :

زرت معه مرة صديقنا طاهر حقى فى منزله وكان طاهر يصغره بعشرة أعوام — مد الله فى عمره — ودار الحديث فى شئون شتى . فاذا به يلتفت إلى ويقول : طاهر من عمرى . فقال طاهر : أنا عمرى ٤٩ سنة . فقال له : كذاب .

فقال طاهر وعلى إيه : عندى شهادة الميلاد . وأسرع فى إحضارها . فلما جاء بها أعطانيها. فقرأتها فوجدته صادقاً . فقلت : حقيق ان عمره تسع وأربعون .

فقال : يا جدع دى مزوره . فضحكنا .

نهرنى بغير ذنب :

كان على ابنه موظفاً فى أول عهده بالوظائف وقبل أن يلتحق بوزارة الخارجية كان موظفاً فى وزارة المعارف. وكان الملك فؤاد معارضاً فى تعيينه أول مرة لأنه ابن شوقى . ولكن المرحوم حشمت باشا جاهد حتى ظفر بتعيينه فى وزارة المعارف . ولما كان على رقيق المزاج

مهذب النفس. فيه رقة الرجل الدبلوماسى . ولما كانت وزارة الخارجية لا يدخلها إلا الأشراف والأغنياء وهو لا تعوزه هاتان الصفتان . سعى له الأستاذ طاهر حتى إلى على ماهر باشا وكان صديقه ورئيساً للوزارة فى الحاقه بوزارة الخارجية .

وحدث بين السعى وبين إتمامه: أن شوقى زار حديقة الحيوان وأعجبه الأسد فى القفص . فأنشأ فيه مقالا نثرياً ؛وكان فى ذلك العهد يكتب نثراً مسجوعاً . ليظهر براعته فى اللغة العربية .

فلما كان المساء، جلست أنا وعلى وطاهر حتى نتحدث فى شأن هذا المقال فى المكتب .

فقال طاهر : ان الملك فؤاد سيظن أنه هو المقصود بالأسد الحبيس فى القفص وأنه تعريض به خفى . ولهـذا أخاف أن تخفق مسألة وزارة الخارجية . فخاف على على أمله وقال : سأكلمه . وهل حذف مقال أو قصيدة من منتوجه يضره . . ان مستقبلى خير من هذا المقال .

وتشاء الصدفة أن يدخل مكتبه فى هذه اللحظة. وكان المكتب : غرفتين ؛ واحدة تفضى إلى أخرى . وكنا نجلس فى الحجرة الأخيرة وكان طاهر مستتراً عن أعين الداخل إلى المكتب .

فلما دخل الحجرة الأولى سأل عنى . قلت : أفندم يا باشا . قال : تعالى نكتب هذا المقال . وكان مقال الأسد . قلت : حاضر وخرجت إليه حيث جلسنا إلى مكتب فى الحجرة . وبدأ يملى على وأنا أكتب .

فاذا بعلى يحضر إلينا ويرجوه ألا يظهر هـذا المقال خشية بطش الملك فؤاد وخشية الاساءة إلى مسعاه فى وزارة الخارجية.

فما كاد يسمعه حتى انفجر غضبه على طاهر حقى وهو يظنه أنه غير موجود. ولكن طاهراً ظهر وأيد علياً فى احتجاجه . فخجل مما نال به طاهراً وهو يظنه غائباً غير حاضر . وأمسكت أنا عن الكتابة فى هذه العاصفة المحتدمة . فنظر فلم يجـد سواى ينفث فيه غضبه من ابنه وخجله من طاهر حقى ؛ فصاح : ما تكتب انت وقفت ليه . أما أمرك عجيب .

فقلت : بقى انت يا باشا ما اقدرتش على الحمار — وأشرت إلى الاثنين طاهر وعلى — قدرت على البردعة فضحكنا . وأبى أن يطوى مقاله عن النشر ولو تعرض مستقبل ابنه للإنحدار . فقد كان يغار على منتوجه غيرة عظيمة ويأبى أن يمس .

ولطف الله ومر المقال ولم يفطن له الملك الأسير. والتحق ابنه بوزارة الخارجية وهو اليوم من كبار موظفيها . ويسرنا أن نورد بعض فقر من هذا المقال ليقدر القارىء خطورته أو هوانه
ثم يقف مع من يشاء : الأب أو الابن ؛ قال :

يا جار الجيزة . وأسير الحديقة . سرت الهموم فلم تنم . أرقتنى شئون وشجون وذكريات مما تركت السنون . وأرقك حز القيد وضغط الحديد . وأثارك ذكرى الصيد والحنين للبيد . سبحان المعز بالحرية المذل بالرق . ما أرقك بالأسحار . وكان غطيطك أرق الصحار . وفرق السمار فى الأكوار . ومال زئيرك ينام عليه الطير ملء جفونه . ولا يتحرك

له ليل الجيزة من سكونه . أصبح أقل من النباح وأذل من النباح . وكان بالأمس يرعد البطاح ويسقط من يد البطل السلاح . وأين ابالبدة طلعة كانت تعقل الفرس والفارس فأصبحت يدعو العيون إليها الحارس.

والمقال كله رثاء للأسد فى أسره وتذكيراً بعظمته الذاهبة .

قال لى إنك مثل ابنى ليغيظ حافظا :

مال عباس الثانى إلى صلح الملك فؤاد والاعتراف له بحق عرش مصر ، ليظفر براتب مقداره ثلاثون ألفاً من الجنيهات تدفعه الحكومة المصرية كل عام .

وقد عرض هذا الصلح المرحوم اسماعيل صدقى . وكان سفير الخديو فى هذا الصلح سكرتيره الخاص وهو يهودى على ما أظن اسمه بو بلى خليفة .

فلما جاء بوبلى هذا إلى مصر. نزل بالأستاذ سليمان فوزى صاحب الكشكول — الذى صار فيما بعد وكيلا للخديو فى مصر — فأراد سليمان فوزى أن يقدم بوبلى للمجتمع المصرى .

حدث شوقى فى تعريفه ببوبلى خليفة . ولما علم شوقى حديث هذا الصلح وأنه أصبح لا ضير عليه فى الاتصال برجال الخديو بعد أن تقرب للملك فؤاد بالصلح . دعا سكرتيره الخاص إلى مأدبة غداء. حضرها سليمان فوزى والمرحوم أمين الرافعى ومحجوب ثابت . وحافظ ابراهيم . وابراهيم الطاهرى وغيرهم من الوجوه الذين غابت عنى أسماؤهم .

فلما جلسنا إلى المائدة وأخذنا فى الطعام. غمزنى حافظ بنكتتين

يدوران حول الطعام . فالتفت شوقى إلى الجميع وقال : ان محفوظا هذا كأولادى تماماً . فتوقعت شراً من حافظ عند سماعى هذه الكلمة. لأنه كان يتهمنى دائماً بالميل إلى شوقى وانى معه عليه . وشهادة شوقى هذه ستزيد الوحشة بينى وبينه وهو رئيسى فى دار الكتب

فلما انفضت المائدة وانصرفنا . وعدت معه إلى مكتبه فى المساء وجلسنا، نظر إلى وقال: ازيك يا عم أدينى غظت حافظ وقلت انك كأولادى . فقلت : إذاً أنا لست كأولادك . فليت سعادتك لم تقل هذه الكلمة . فلا أنا تشرفت بالانتساب إليك ولا أنا آمنت غضب حافظ ابراهيم، فالويل لى منه غداً فى الكتبخانة والله أنا فى حيرة بينكما ربنا يلطف . وقد كان . فقد غضب على حافظ أسبوعاً فى كلمة لم يقصد بها شوقى غير اغاظته ولم يعن بها تشريفى .



لم يكن هذا الشيخ الذى جاوز الستين بعامين . إلاشاب يأكل كما يأكل الشباب ويسهر أكثر مما يسهر الشباب . ويجول كما يجول الشباب . لم يعرف ضعف الشيخوخة ولا فتورها ووهنها . لم يلزم فراشاً . ولم يسعل . كان يسافر وحده ويعود وحده ويزاحم العامة فى ركوب الترام . لم يأخذ بيده أحد ولم يقم له أحد عن مكانه تقديراً لشيخوخته واحتراماً لسنه .

لقد غفل ماضى هذا الشيخ عنه طويلا . هذا الماضى العابث المهلك للعافية السالب للقوة حتى فى إبان الشباب وعنفوانه ولكن هل يظل هذا الماضى غافلا عن حاضر هذا الشيخ ؟ يأكل كما يشاء فى الليل الراكد . ويشرب كأسين من الكحول كل صباح عقب قفوله إلى داره فى الساعة الثانية من صباح كل يوم . وهل تجدى مقويات الأدوية فى دفع الماضى عن أن يفعل فعله بهذه الأنسجة العتيقة . وتلك الأعصاب المرضوضة والمتوترة دائماً .

كلا. فقد استيقظ ماضى الشيخ . استيقظ ليهزم حاضره ويثبت وجوده ويظهر سلطانه .

كنت فى زيارة لطبيب شوقى الخاص الدكتور حسين برسكا فى ظهيرة يوم من أيام ديسمبر سنة ١٩٣٠ ؛ فرأيته يضحك ويقول بلغته العربية السقيمة :

هل يظن شوقى أنه لا يزال شاباً يأكل كما يشاء فى أى وقت يشاء. هل يجوز له أن يأكل فى الليل طعاماً دسماً يجعل ختامه كريمة باللبن والبيض . ماذا يظن هذا الرجل انه مدين لقلبه بالحياة . ان قلبه قوى ولكن أعصابه مهلهلة تالفة .

قلت : فيه إيه يا دكتور .

قال : لقد أزعجنى شوقى فى الساعة الرابعة من الصباح بالتليفون يطلبنى لأنه أحس بألم فى معدته، فأسرعت إليه فوجدته قد تقيأ .

فلما فحصته علمت أنه أصيب بتخمة يصحبها برد كانا سبباً فى هذا الضيق الذى ألم به . فهونت عليه الأمر وأمرت بعمل تدفئة له .

ولكن الدكتور كان قد أخطأ الحساب . فان المرض كان أبعد أثراً مما قدره . فان الماضى السحيق قد أقبل على الرجل يوهنه وسلاحه : تصلب الشرايين .

وهذا مرض يقتحم على الشيوخ الذين أسرفوا فى شبابهم أوردتهم فيجعلها يابسة صلبة تصرف الدماء بصعوبة .

جزع شوقى من هذا الوافد البغيض ووجد أن الأمر جد . فلم يكتف بطبيب واحد . فلو استطاع أن يجمع أطباء الدنيا لإنقاذه لفعل .

دعا الدكتور سليمان عزمى . فطمأنه وأخذ بعض دمه خشية أن يكون فى الدم بولينا . وجاء التحليل سلبياً .

ففرح الشيخ المريض وأيقن أنه سيشفى بعد بضعة أيام ليعود إلى سهره وندوات محجوب فى قهوة الشيشة وداود بركات فى الأهرام . ثم قبل ذلك إلى جولاته فى الأحياء البعيدة الشعبية وإلى مطاعم الكباب والفول

ولكن المرض طال . وألح الماضى المنتقم بعد أن وجد فرصته فى صحن من الكريمة بالبيض واللبن . ألح على هذا الجسد الواهن فألزمه الفراش أربعة أشهر ثم أنهضه حطاماً يسير فى عجز ومرض بين غرف الدار الأنيقة الواسعة .

ولكن حب شوقى للطعام أدركه، فتاقت نفسه إلى شوربة عدس فشربها. فحملته إلى فراشه ليقضى فيه وقتاً آخر .

والعجيب فى هذا الشيخ المريض الذى شاخ فيه كل شىء ، أن ذهنه ظل شاباً متوقداً نشطاً لم تنل منه العلة ولم يطمسه المرض . فقد خالف المثل السائر القائل «العقل السليم فى الجسم السليم» ووافق حكمة الكاتب الارلندى الأشهر برنارد شو القائلة : « العقل السليم فى الجسم العليل » .

فقد نظم شوقى فى مرضه هذا أشهر مسرحياته وأخلدها « مجنون ليلى » ثم نظم بعدها « قمبيز » وهو مريض أيضاً ثم مسرحية « على بك الكبير » .

وعلى الجملة . انشوقى نظم مسرحياته كلها وهو مريض إلا مسرحية «كليوبترا » .

ومن لطف الله بهذا الإنسان المؤمن ان مرضه لم يكن مصحوباً بأرق أو بألم . وهما شر مافى الأمراض؛ إنما هو ضعف وهزال وتدهور.

وشغل الرجل بصحته التى كان مشغولاً بها دائماً .فأمر باحضار مقاس لضغط الدم؛ مرن عليه كاتبه الذى كان يلازمه دائماً فى روحاته وغدواته .

فكنت إذا دخلت مكتب دائرته فى المساء: رأيت ذراعاً نحيلة قد التف بها خرطوم قابض . ثم رأيت شاباً أسمر يحرك آ لة تضغط على هذا الخرطوم ثم ينظر فيما يشبه الساعة . ثم يتحول الشاب إلى صاحب الذراع النحيلة العارية بالرقم المطمئن .

وتغيرت عادات شوقى كلها . فلم يعد يدخن ولم يعد يشرب كأسى

الويسكى. ولم يعد يسهر إلى الثانية والثالثة صباحاً . بل اقتصر على الحادية عشرة مساء . ولم يعد يأكل الأطعمة الدسمة فى الظهيرة والمساء . وثقل لباسه فى الشتاء ورفعت بنيقة المعطف فى المساء . وحذر المريض من كل شيء وفاقت طاعته لأطبائه الحدود ، فلم يخالف ولم يهمل . وكان يحيف على بدنه فى الطعام حتى أصبح شبحاً لامع العينين .

وانكب انكباباً كلياً على النظم والقراءة . كأنه يريد أن ينسى مرضه فى هذين . واختار من الكتب : كتب الصوفية . كالاحياء للغزالى واظهار الحق. وجعل القرآن فاتحة كل قراءة يقرأ كاتبه عليه منه سورة أو سورتين.

وعرف شوقى سهر المنازل التى لم يألف السهر فيها قط .

كان يزور دار اسماعيل شرين رحمه الله ، ودار اسماعيل شرين من تلك الدور التى ألفت غشيان الأدباء والظرفاء من عهد بعيد. كانت منتدى من تلك المنتديات التى كانت تعرفها القاهرة لأجدادنا الذين لا يعرفون غيرها.

كانوا لا يعرفون مشارب القهوات ولا نوادى السمر المفتوحة للهو أو للعب الورق ولا كباريهات الرقص والغناء ؛ إنما كانوا يتزاورون فى بيوتهم يشربون ويسمرون ويلعبون النرد أو الضمنو .

وكان من أشهر هذه الدور فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين : دار آل شرين . كان شوقى يقول : ان القاهرة لم تعرف فى العهد الماضى أحفل من دارين : دار شرين ودار البارودى الشاعر .

كانتا حافلتين دائماً بالأدباء والشعراء وأصحاب الحاجات . لايسأل طارقهما لماذا دخل ولأى حاجة قصد . كانتا مثابة للأستاذ الإمام محمد عبده وقاسم أمين وأحمد عرابى كما كانتا مثابة للفنانين كعبده الحمولى

ومحمد عثمان ويوسف المنيلاوى ومحمدسالم العجوز والحمركشى والمسلوب العواد . كما كانتا مثابة للظرفاء والأدباء .كامام العبد والشيخ ابراهيم الدباغ وحافظ ابراهيم وحبيب الأشقر وغيرهم وغيرهم .

كانت تدور فى هاتين الدارين كل شئون المجتمع المصرى من أدب وسياسة وفن وظرف .

فكان إذا صليت العشاء ؛ وفدت هذه الطوائف على هاتين الدارين فوجدت طعاماً وشراباً وطرباً وحديثاً ومعونة .

وتغيرت الحال فى مجتمع القاهرة وهجر الناس بيوتهم إلى خارجها ؛ إلى القهوات والمراقص والنوادى والشوارع ؛ وأغلقت تلك الغرف التى كانت مفتوحة تستقبل زوارها فى العشايا وتودعهم فى الفجر .

اغلقت كلها إلا غرف اسماعيل شيرين الذى حافظ على هذا الطراز القديم فى التزاور . ظلت مفتوحة تستقبل فلولا من الذين يحنون إلى هذا السمر المستحب من العهد الماضى .

ولم يكن شوقى من هذا الطراز القديم الذى كان يؤوى إلى تلك الغرف الصاخبة المملوءة بهذا الخليط من الناس . بل كان من هذا الصنف الذى لا يجد متاعاً إلا فى القهوات والبارات المطروقة من غرباء لا يعرف بعضهم بعضاً .

ولكن المرض وضعف القوة ألجاءا هذا الشيخ الواهن إلى منزل اسماعيل شيرين .ليسمر طرفاً من الليل ثم ينصرف إلى كرمة ابن هانى فى الساعة الحادية عشرة. لأنه لايطيق من السهر أكثر من ذلك .ولاسماعيل شيرين رحمه الله أخ توأم يجرى مجراه ويسير على نهجه .وكان يسكن الاسكندرية .

كان حسين شرين من آنق شباب مصر وأكرمهم خلقاً . كان

شديد التعلق بالدين. أديباً ظريفاً .فكان شوقى يتخذ بيته فى الاسكندرية — إذا ما نزلها — للسمر والحديث وتزجية الوقت. كما اتخذ بيت أخيه اسماعيل فى القاهرة .

وكان حسين حبيباً لشوقى صديقاً له .نزل به الموت قبله فاقتضب أنس الشيخ المريض فأصبح بعده حائراً ؟ أين يقصد ومع من يمضى سهراته فى الاسكندرية .

فاقتصر على الرياضة فى الضواحى بعربته ثم الرجوع إلى المنزل ثم العشاء الخفيف ثم القراءة فى كتب التصوف ثم النوم المبكر . وأصبح الشيخ الذى كان ينفر دائماً من اصطحاب أى إنسان فى جولاته لا يستغنى عن صحبة كاتبه أحمد عبد الوهاب .

لقد رجع هذا الرجل المتفرد دائماً إلى طفل يجزع من السير وحده ويخاف الناس والاختلاط بهم . بعد ما كان من عهد قريب جداً يتجول فى أقصى الأحياء الوطنية وأشدها خطراً على سالكها .

ولكنه المرض ؛ ذلك المرض الذى حمل شاعرنا الكبير على السفر إلى القاهرة فى وقدة الصيف. لأن كاتبه غادره لزيارة أبيه المحتضر الذى بلغه نبأ احتضاره وهو مع مولاه فى الاسكندرية .

يا للشيخ العظيم المسكين . شوقى الذى كان لا يزور سرادق الأموات أبداً ولا يعرفها ويخافها ولم يطرقها للمجاملة ولو كانت لأصدق الأصدقاء وأعظم العظماء .

يذهب إلى سرادق متواضع فى حى وطنى ينتظر فى ركن فيه ساكناً ساهماً . يتغير قراء القرآن . وتنفض جماعة وتدخل أخرى وهو

جالس ساكن ينتظر فراغ السرادق من المعزين وانتهاء ليلة العزاء، ليصحبه كاتبه إلى داره .لأنه لايستطيع أن يظل بغير أنيس . فماذا كان يجرى فى خاطر هذا الشيخ المريض وهو قابع مستكين فى هذا السرادق الذى تفوح منه رائحة الموت . وهو الذى كان يهرب من حديث الموت ولا يطرقه أبداً إلا فى الشعر .

والمرض أيضاً وثقله وشبحه المقيت الذى يرفع يده فى الظلام يشير إلى الموت ليقترب . هو الذى جعل شوقى يقف فى حديقته الواسعة التى تكاد تبلغ مساحتها فداناً يتأمل فى تلك المساحة ويقيسها . ولكنه يخطىء فى التقدير . فيهيب بكاتبه يدعوه ليسأله : هل تستطيع أن تقول لى عن مقدار ما يحتاجه قبر من مساحة ؟ فيضطرب الكاتب المسكين ويتلعثم ويقول : لا قدر الله . فيلح المريض الواهن طالباً جواباً .

فيضطر الكاتب الذى لا يعرف إلا الطاعة أن يقول : أظنها عشرين متراً » .

فيقول المريض. ومامقدار مساحة حديقتنا ؟ فيقول الكاتب : أظنها ثلاثة آلاف متر .

فيقول المريض : قسمها على عشرين . فيقول الكاتب : تساوى مائة وخمسين .

فيقول المريض : سبحان الله ان ثلاثة آلاف متر لا تكفينا —لأنه كان يريد أن يضم قطعة أرض فضاء مجاورة إلى حديقته — وعشرين متراً فيها أعظم الكفاية لتضم عظامى بعد موتى ! ! ما أبعد طمع الإنسان. بهذه النظرية الجديدة اكان شوقى ينظر إلى الحياة التى بدأت تتسلل من بدنه الموهون .

وكان يقول : أصبحت لا أخاف الموت وكنت أخافه . فليس لى فى هذه الدنيا ما أعمله . لقد فقدت كل أسباب حياتى . فقدت شهية الطعام . وفقدت القدرة على السير وحيداً . وفقدت لذائذ الكيف . فلا سجائر ولا منعشات . وفقدت أسباب الاستمتاع بالجمال التى كانت تعيننى عليها العافية . وساء خلقى وأصبحت ثقيلا على أولادى وعلى الناس.

قال المازنى رحمه الله : ان الله لطيف بعباده . انه يهون كل شىء حتى الموت ؛ يعود عليه الناس يدفعهم فى طريقه خطوة خطوة حتى إذا ما نزل بهم لم يعافوه .

هكذا كان شوقى . كان يسير إلى الموت ويهيىء نفسه له ويعينه المرض على السير حتى بلغ آخر المطاف .

آخر لياليه :

فى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٢ أطبق ليل الخريف الموحش بكآبته التى يرتجف منها الشجر فيتعرى من أوراقه . ويسرى الخوف إلى الأرواح المرهفة فتحس بانقباض . كانت لا تحسه فى ليالى الصيف الرقيقة النسيم المملوءة بالحياة والحركة والسمر فى الأمكنة العارية المؤنسة .

فى تلك الليلة من ١٣ اكتوبر أحس شوقى بنشاط فى بدنه وعافية لم يكن يعهدهما من شهور ، فأنهى هذه البشرى إلى كاتبه .

وجلس الاثنان يتناولان العشاء فى مطعم ؛ واكتفى الشاعر بالشوربة ليتخفف لئلا يفسد على نفسه ذلك النشاط .

وكان الشيخ يأمل أن يرى الغد فقد أمر كاتبه أن يذكره فى الصباح ليملى عليه كتاب شكر للإمام يحى بن حميد الدين إمام اليمن لأنه بعث إليه بهدية من بن اليمن .

وماذا يا ترى كان يدور برأس شوقى أيضاً . هل كان يفكر فى وفد من الشباب أعضاء جمعية القرش الذين زاروه من عهد غير طويل وسألوه أن ينظم لهم قصيدة فى أول باكورة من نتاج مشروع القرش وهو مصنع الطرابيش .

هل كان يقدر أن هؤلاء الشباب عندما تنفض حفلتهم الساعة الحادية عشرة صباحاً . سيذهبون إليه للشكر على قصيدته التى بعث بها إليهم . وقد كان يحب هذا النوع من الشكر . فقد كان مهتما بالشباب يرى أنهم دعائم الشهرة لكل عظيم . فلولاهم لما ارتفع شأن مصطفى كامل ولا ظهرت عظمة سعد زغلول .

لا ندرى ماذا كان يدور برأس شوقى .

إنما علمنا ما حدث الساعة العاشرة من مساء ١٣ اكتوبر إلى الساعة الثانية من صباح ١٤ اكتوبر . ذهب شوقى الساعة العاشرة إلى صحيفة الجهاد وسمر هناك . هذا السمر الذى كان ديدنه فى مراحل حياته والذى لم يقلع عنه أبداً فى دور الصحف .

فلما كانت الحادية عشرة أحس بسعال يكربه . فاتخذ عربته إلى داره المطلة على النيل الخالد . وجاء الخادم الأسود فنضا عنه ثيابه وأرقده فى الفراش وأرخى عليه الكلة وحيا وانصرف . خفق الشيخ خفقة وأخذته سنة متقطعة .

فلما كانت الواحدة والنصف صباحاً . جاء ذلك الذى طالما ملأ قلبه رعباً . فقرعه فهب مذعوراً . ولكن الطارق أناخ على صدره وأخذ عليه أنفاسه فضيقها . فجمع كل ما بقى له من قوة واهنة وقرع الجرس يدعو الخادم الأسود ليسعفه بالكافور دينامو القلب لعله يرخى من قبضة ذلك الآخذ بمخنقه .

أدركه الخادم . فصاح : ارفع الناموسية . ولم يدر الشيخ المسكين أن الجاثم على صدره إنما هو الموت . وصاح على بالكافور؛ فهرول الخادم الأمين ؛ ولكن المحتضر الذى لمس الخاتمة الماثلة لروحه المودعة صاح فيه قائلا : « ارجع . ارجع . فرجع المسكين .

فقال المحتضر : لا تحضر شيئاً . فقد أنشبت المنية أظفارها ولن تتركنى . أيقظ السيدة وادعوها .

هبت السيدة الكريمة مذعورة على هول النبأ ؛ وأسرعت إلى غرفة الزوج ذلك الذى لم تغضب منه قط . وإن كان شبابه يغضب الزوجات نظرت ملتاعة . فسمعت ويا هول ما سمعت . سمعت ذلك الشخير الذى يخرج بآخر أنفاس المحتضر ويدع العينين مفتوحتين والفم فاغراً . فأغمضت العينين وأقفلت الفم وأسندت الرأس إلى القبلة ؛ ذلك الرأس الذى طافت به تلك المعجزات من الفن الرفيع ومات شوقى .

وقد قال :—

أخ كان يملأ أمس الهـواء	ويحيا الحياة ويجرى العُمُر
نزيل لعمرى غريب الغطاء	غريب الوطاء غريب الحُجَر
لدى منزل كبيوت الكراء	مراراً خلا ومراراً عمـــر
يزار كثيراً فدون الكثير	فغبّاً فينُسى كأن لم يزر
وليس بنافعـــه الواصلون	وليس بضائره من هجر
فيا ميْت امس عدتك الرياح	وحياك فى الفترات المطر
وأمس كعاد وإن كان منك	مطيف الخيال قريب الصور
لقد نفض الليل منك اليدين	وأدرك فيك النهار الوطر

وأمسيت تحت لواء التراب قهرت القضاء ودنت القدر
تلفت وراءك أين الغرور وأين السرور وأين الأشر
وأين معالم عرس الحيـــاة وأين ســـنا ليله المزدهر
وأين شباب كحلم العروس ضحوك العشيات طلق البكر
وأين العداوات من سافر مبين ومن كاشح مستتر
وأين المودات من صحبـــة كنحل يحمن وأنت الزهر
قليلون عند امتناع القطاف كثيرون عند رجاء الثمر
وكم من سقيت بشهد الوداد فلم تجز إلا بصاب الإبر
فذق سنة لا ككل السنات ونم ليلة ما لها من سحر
وقل للصديق طوينا الحديث وقل للعـــدو دفنا الخبر
وهيء مكانيهما فى التراب فان ركابيهـــما منتظر

موضوعات الكتاب

تحت الطبع :

حياة حافظ ابراهيم

